

**الدكتور. زكى المھاسنى**  
بأقلام بعض رفقتہ ومحبیہ

obeikandi.com

## المحاسنى

### فى نبوغه ورفقته

لاديب البحث والعربية والحقوق

الأستاذ ظافر القاسمى

النقيب السابق للمحامين - سورية

فى أواخر العشرينات، كان يلتقى أربعة من الشباب، نذروا أنفسهم للعلم والادب، وعشقوا الفصحى، حتى كادت تكون لغتهم الوحيدة فى الخطاب، ونظروا الى الحضارة العربية نظرة التقديس، واخذوا من اسباب الثقافة الحديثة بنصيب تفوقوا معه على الاقران. هؤلاء الشباب هم: مسلم القاسمى، وزكى المحاسنى، وعبد الحليم العلمى، وحسن العشا. كان لقاءهم يقع فى بيت احدهم، أو فى احد المتنزعات، وربما آثروا سفح قاسيون على غيره فى ليالى الصيف، ينعمون بهوائه الطلق، وبهذا المنظر الخلاب الذى يرون فيه عاصمة الامويين تمتد تحت أقدامهم، وهم يتذاكرون، ويتناقشون

ويتمازحون. كنت في الرابعة عشرة، أو أقل، حينما كانوا يجتمعون في بيتنا القديم بباب الجابية، وكنت أقوم على خدمتهم. فأعمر السمارور، وأطوف عليهم بأكواب الشاي. وكانوا يأنسون أيما أنس في هذا اللقاء، لأنه كان يعقد على الغالب في غرفة كنا نسميها (مربع الكتب)، لأن مكتبتنا، أو معظمها قد جمعت فيها، فإذا ما احتاجوا للرجوع الى مصدر من المصادر، أو أى كتاب من كتب الامهات، كان قريبا منهم. وأشهد أنني طلعت من هذه الاجتماعات بكثير من الفوائد، وعيتها عنهم، وحفظتها من أفواههم، وأنا في سن مبكرة، فاليهم جمعياً يعود كثير من الفضل في تكوين ثقافتى، وأخذت عنهم عشق الفصحى، والنطق بها، والزراية على من تنكب عنها. وكانوا جميعاً لا يعرفون من اللغات الأجنبية إلا الفرنسية، لأنها اللغة الوحيدة التى كانت تعلم أيام الانتداب، وعلى أنهم جميعاً من طلاب (مكتب عنبر)<sup>(١)</sup>، فقد تفوقوا فيها على أقرانهم، على الرغم من ضعفها في تلك الأيام، في الثانوية الوحيدة في مدينة دمشق.

وربما جاء احدهم بقصيدة من روائع الأدب الفرنسى، فقرأها وشرحها، وحرت المذاكرة حولها، وربما ترجمها، فقرأ على إخوته ما ارتأه من نقل لها الى لغة العرب، فكان النقاش يدور حول لفظ أو معنى. وكنت استمع الى ذلك كله، فأجد فيه ما يشبه السحر. كان أعظم ما يشدنى الى هذا المجلس هذا الصفاء بين اللدات

(١) للاستاذ ظافر القاسمى مؤلف قيم عن هذا «المكتب» أو المعهد الحكومى الكبير الذى خرج رواد الفكرة العربية وطلّاع النبوغ فى العلم والادب.

والاقران، فلا حسد ولا غضب ولا خصام. وإذا رددت اليوم القول المأثور: (مجلس العلم روضة من رياض الجنة) تمثل امامى ذلك المجلس الخصب بأخلاق جلاسه، وطيب أنفاسه، ورفيع مذاكراته، وشيق مناقشاته، ومليح نكاته. ولم يكن هذا المجلس فريدا فى مدينة دمشق، وإنما كانت له أشباه ونظائر، فما كان الشباب ليلهو بمغريات اليوم، وما فيها من مفاسد.

وكان فى تلك الايام مجلات شهرية وأسبوعية، يعتبرها المثقفون جميعا، والشباب خاصة، منهلهم الاول فى ثقافة العصر، هى: المقتطف والهلل والسياسة الاسبوعية، وما أدراك ما السياسة الاسبوعية فى ذلك الحين! كانت مجلة أسبوعية يقبل عليها القارىء يوم وصولها، ولا يكاد يحب ما فيها من يتابع الثقافة الصافية حتى يصل العدد الجديد. وكان احتواؤها، وحملها، دليلا على أن محتواها وحاملها من صفوة المثقفين. وما كانت أقلام كتابها إلا أقلام الطليعة من الادباء. ويغامر الشاب زكى المحاسنى، وينقل بحثا عن الفرنسية (فيما أذكر) ويرسله الى السياسة الاسبوعية فى القاهرة حتى يرى المشرفون عليه نصاعة الاسلوب، وسلامة اللغة، وحسن اختيار الالفاظ وأهمية الموضوع فينشره البحث (للاستاذ) زكى المحاسنى، وزكى يؤمئذ شاب لما يتمم دراسته الجامعية، ويتوالى اللقاء بين الاتراب، حتى اذا كان عام ١٩٣١، نال مسلم جمال القاسمى شهادة الطب، وكان بين خطباء حفلة التخرج، وبعد أيام أقعده المرض ثم اختاره الله فى تشرين الثانى من السنة نفسها، أى

بعد أربعة أشهر من أخذه شهادة الطب، فانقطع اللقاء في بيتنا، غير ان العلاقة ظلت بينى وبين لداته الثلاثة قائمة، علاقة الاخ الصغير بالاخ الكبير.

وتمضى شهر، لا أدري عددها، فألتقى بزكى المحاسنى فى أروقة محاكم الصلح. كنت يومئذ ما زلت طالبا فى مكتب عنبر، وكان هو محاميا ناشئا، فيطلعنى على عدد من مجلة (الحديث) التى كان يصدرها سامى الكيالى فى حلب، وفى هذا العدد قصيدة له، حفظت منها على الفور مطلعها:

أما الخدود فانها تفاح

والريق فى هذى المباسم راح

وعلى الطريق أوانس فتانة

خطواتهن على القلوب جراح

ويعلمنى أنه نظم قصيدة مطولة فى رثاء أخى مسلم القاسمى، فأتواعد معه على اللقاء، ويسمعنى القصيدة المطولة فى بيته، فاذا هى عنوان من عناوين وفاء زكى المحاسنى، الذى سأحدث عنه بعد قليل.

وكان الاستاذ محمد كرد على، رحمه الله، رئيس المجمع العلمى العربى، حريصا على تشجيع الشباب. وكان من الوسائل التى سلكها لهذا التشجيع ان اقام حفلة خاصة فى قاعة المحاضرات بالمجمع، لاربعة من الشباب، منهم الشاعران زكى المحاسنى وأنور

العطار فألقى كل واحد من الاربعة قصيدة له وكان ذلك تنبؤا صادقا من الرئيس الراحل فى نبوغ هؤلاء الشباب، فكلهم قد حقق ظنه، وغدا مرموقا بين معاصريه.

ويبدو لركى المحامسى أن يعتزل المحاماة، وان ينصرف الى تعليم اللغة والادب، فلهذا خلق، وهذه هى رسالته التى هياها الله لادائها، فضأت افواج متعاقبة أخذت عنه لغة العرب وآدابها.

وتمضى السنون والمحامسى ماض فى دراسته وتحصيله حتى يأخذ الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٤٧ فكان اول سورى أو عربى حمل هذا اللقب العلمى من غير المصريين، فكلفه سبقه وتفوقه حقد الحساد، على أن المحامسى أوفد الى الجامعة المصرية وهو معلم متمكن وأديب وقد عرف فى دمشق والعالم العربى بشعره الذى كان ينشره فى الصحف أو يلقيه فى الندوات فذهب الى مصر متمرسا بالعربية وآدابها وعاد منها متمكنا فى البحث والتأليف والدراسة الجامعية فتلقته دمشق بالحفاوة وأقبل عليها يفديها بعلمه وعمله متنقلا بين التدريس فى الجامعة أو فى وزارة التربية ويرسل مرة ثانية وثالثة الى مصر فى مهمة ثقافية بالسفارة السورية ثم فى تخطيط التعليم العالى بالقاهرة أعوام الوحدة.

مضت سنون أخرى حتى اذا كان عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ ميلادية ذهبت الى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج. وكان وزير الحج والافاق يومئذ الاستاذ الحافظ محمد عمر

توفيق<sup>(١)</sup> صديقا لى ونسيبا، فأعلمنى ان رفيقى فى أداء المناسك هو الدكتور زكى المحامسى. كان يومئذ معارا لجامعة مكة من وزارة التربية. ولا تسل عن ابتهاجى بهذا الرفيق الانيس الذى ساقته الاقدار الى. كان أول ما بادرنى به قوله: انت مطوفى، وحجتى فى رقتك. وكان ان بدأنا بالطواف، فضايقه الازدحام، ودفع الناس بعضهم لبعض على غير نظام، وقرأت فى وجهه، وهو الى جانبى، الرضا والصبر، فقلت له: (حفت الجنة بالمكاره) فقال: (وحفت النار بالشهوات)، وأخذت أقرأ أدعية من كتاب خاص أقتنيت له هذا الغرض، وكان يرددها معى، حتى اذا انتهينا من الطواف حول البيت المقدس أعاد على: (حجتى فى رقتك). وقضينا بعد ذلك ليلة فى عرفات، توجهنا بعدها الى منى، حيث قضينا ثلاث ليال. كنا نسمر فى منى بدار وزارة الحج، وقد دعا وزيرها من اجلنا عددا من العلماء والمفكرين والادباء والشعراء، بعضهم من السعودية، وبعضهم الاخر من اعيان البلاد العربية الاخرى، الذين وفدوا للموسم. واشهد أن زكى المحامسى كان قطب الرحى فى المذاكرة التى جرت ثلاث ليال، يخوض فى كل موضوع ويستشهد بالآى والحديث والشعر والنثر فيطرب السامعين. وربما وقع خلاف حول موضوع من المواضيع، فينبى زكى المحامسى لتأييد هذا أو ذلك، وكثيرا ما كان رأية الموفق فصل الخطاب. أما اذا تعلق الامر بجلاء غامض، أو رفع شبهة، أو تحرير قول، فانه كان من المجملين. كان زكى المحامسى فى

(١) هو أديب ناقد بعيد عن الضوضاء وله مؤلفات فكرية وادبية.

هذه الليالي الثلاث علما بين الاعلام، وحجة بين الباحثين،  
ورواية بين الرواة.

ويقدر لى أن اعود الى لبنان لانتولى تعليم اللغة العربية فى كلية  
التربية من الجامعة اللبنانية، فأعود لارى فيها أيضا زكى المحاسنى  
أستاذا فيها وفى كلية الآداب، فنجدد العهد، ونستعيد الذكريات  
المليئة بالنور والحق.

كان أخى زكى المحاسنى مثلا شرودا فى الوفاء، فما من صديق  
أصدر كتابا، أو تزوج، أو رزق ولدا، أو احتسب ولدا، أو نابه شأن  
من شؤون الدنيا خيرها وشرها، الا وراسله مهنثا أو معزيا أو مواسيا أو  
مشجعا وهذه صفحات مجلة (الاديب) البيروتية، تشهد فى كل  
عدد من اعدادها، ولا سيما فى السنوات الاخيرة، بأنها لم تخل من  
مقطوعة نثرية أو شعرية فى باب الاخوانيات لزكى المحاسنى.

أقبل على الشعر فوجود فيه، وكان من فرسانه، ولو أن ديوانه بين  
يذى<sup>(١)</sup> لأيدت أقوالى بالكثير من روائعه. وأقبل على النثر، فاذا هو  
من فحولة: اسلوب قرشى صاف مشرق، لا ترى فيه عوجا ولا امنا.

واقبل على التأليف، فاذا هو باحث مستقص، يجمع اطراف  
الموضوع فى رده، ثم ينظمه كالعقد، فى أبواب وفصول، فقلما  
تجد ثغرة فى بحث من ابحاثه.

---

(١) سينشر قريبا.

ولقد أفادته ثقافته الفرنسية، واطلاعه على المنهج الحديث في البحث، فأخذ بأصوله، واتبعه في جميع كتبه، فكان بذلك في طليعة الشعراء والكتاب المعاصرين الذين قدموا للمكتبة العربية روائع الآثار.

رحم الله أخى زكيا، فقد كان زكيا حقا، في خلقه وعلمه وأدب نفسه وقلمه. وهيهات أن تجود الأقدار بزكى آخر..

\*\*\*

## أخى زكى الماسنى

للشاعر الاديب الدكتور

صفاء خلوصى

الاستاذ فى كلية الآداب بغداد والمحاضر

المحقق فى جامعات لندن وخرنن المخطوطات

ايه يا أخى زكى...

ما تزال رسالتى الاخيرة اليك بدون رد، وقد عجبت من طول  
الانتظار، أنت الذى عودتني أن تبعث برودك الى سراعا... وعلى  
عجل!...

ما أكثر رسائلك الى وأنت مريض، ومع ذلك فما كنت تتشكى  
ولا تبعث بأنة ولا آهة، حتى خيل الى أن ما ينسب اليك من مرض  
وعكة عابرة بولغ فيها، الى أن جاءني النعي، فرجعت من توى الى  
رسائلك وأشعارك وكتبك أنشرها بين يدي، وبعضها لا يزال طرى  
المداد، وما زاد فى طراوة مدادها هذه الدموع الحرى التى ذرفتها من

أجل صديق عزيز راحل، وان كان الدمع لا يليق بالرجال، ولكن  
من أجل من جمع المحاسن يا «محاسنى» عندى ألف عذر وعذرا!

أذكرك يوم بعثت بأساطيرك<sup>(١)</sup> الى وأنا نزيل مدينة ليدز؟

لقد قرأتها معجبا مباركا لك عبقرتتك، ولم أتمالك نفسى من  
نظم قصيدة فى اطرائها والثناء عليها وعليك... وقد قلت يومها:

عقل العى مقولى

مقولى اليوم خائئى!

وما يصدق على بالامس يصدق على اليوم مضاعفاً، فانا عى  
مشدوه، لأحير بيانا ولا أستطيع كلاما، وان ما اقوله هذيان محموم  
وهذمة من أضاع الرشد، فوقع الصاعقة على أهون من نبأ نعيك  
وخبر مفارقتك دنيانا. وان كانت دنيا لا يأسف على فراقها انسان.

لقد وعدتني بكتابة مقدمة للجزء الجديد من «الفسر» أنت يا من  
لم تخلف وعدا ولم تنكث عهدا، أنت يا من شاطرتنى الاعجاب  
بالمتنبي وروايته، فاين منى وعدك ومرتقب عهدك؟

لا، يا أخى زكى، لا، ماهكذا يكون الرحيل ولا الوداع... فقد  
تركت رسالة بلا رد، وكتابا بلا مقدمة، وقلبا بلا نجوى، فالى أين  
الرحيل على عجل يا أبا ذكوان؟

أتصدق أن ساعى البريد ناوئنى الرسالة التى تحمل نبأ نعيك وأنا

(١) للمحاسنى كتاب «أساطير ملهمة».

أحقق الأبيات التالية لصديقك وصفيك المتنبي:

نبكى على الدنيا وما من معشر  
جمعتهم الدنيا، فلم يترقوا  
أين الاكاسرة الجابرة الألى  
كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا  
من كل من ضاق الفضاء بجيشه  
حتى ثوى، فحواه لحد ضيق  
خرس اذا نودوا، كأن لم يعلموا  
أن الكلام لهم جلال مطلق  
فالمت آت، والنفوس نفائس  
والمستغر بما لديه الأحمق

حتى اذا ما فرغت من البيت الاخير واثبتته بروايته المتباينتين بين  
من يقول: «المستغر» فضضت الكتاب، وياشؤم ما قرأت... فأيقنت أن  
المتنبي سبق صاحب الكتاب فى ابلاغ نعيك الى... بأبلغ لفظ  
وأروع عبارة:

نبكى على الدنيا وما من معشر  
جمعتهم الدنيا، فلم يترقوا

أجل لقد كان المتنبي بين نعاتك وورثاتك فقد جمعنا الدنيا  
بالمحاسنى وأقرانه ولداته الطيبين، وما نحن أولاء بدأنا نتفرق واحدا تلو  
واحد، فيا تعس الحياة التى لا تبقى على صفى أو صديق.

لقد كان إسما على مسمى، وقلما تصف الأسماء مسمياتها

بمثل هذه الدقة والبراعة. كان جملة محاسن، ومجموعة رجال فى رجل واحد، لذلك لا أصدق انه مات، فقد يموت فيه شخص أو شخصان وتبقى جملة شخص. ربما مات زكى المحاسنى الهيكل الفانى، ولكنى لا أصدق أن الشخص الاخرى الكامنة فيه قضت نجها جميعا.

قولوا أيها النعاة شيئا آخر غير هذا، فانى لا أصدق موت زكى المحاسنى الباحث والاديب والكاتب والشاعر.. فان هؤلاء أحياء لا يموتون. واسمحوا لى أن أكذب النعى فان رسائله لا تزال طرية المداد أمامى وها هى ذى بخطه وقلمه، بعواطفه المخلصة الصادقة أبدا.

لقد اجتمعت لدى من رسائله طائفة أعتز بها. لقد كتب الى ابان مرضه. كل ذلك لكيلا أشعر بوحشة الاغتراب، وليس ذلك فحسب بل كان يشفع رسائله بمؤلفاته بكتبه وقصائده ألا ما أشد ظلام الدنيا بدون المحاسنى، بل ما أعظم الكارثة على دنيا الادب والاديب!

دعونى أنبذ فكرة التصديق بموته، لاننى لا أستطيع أن أتصور مجلة «الأديب» خلوا من اسمه الحلو ذى الجرس الرائع والحروف المتألقة.

كان زكيا، وكان جملة محاسن... أقولها حقا وصدقا، ويقولها معى أصدقائه، وهم كثر فى كل بلد من أرجاء الدنيا العربية.

أعتقد أنه مات بهيكله الفانى كما مات جهابذة العلماء من

قبل: مات والقلم فى أنامله، والأفكار الحلوة تداعب ذهنه الوقاد،  
والكلمات الذهبية تنساب حلوة الجرس على لسانه الذرب.

كان أكثر من شاعر، وكان أكثر من اديب. كان عالماً وفقياً فى  
اللغة، وأذكر اننى بعثت اليه بيت مغلّق من شواهد ابن جنى يوم  
كنت فى مدينة ليدز، بعيداً عن المصادر والمطان، فبعث الى بتعليق  
يدل على المعية وذكاء وسعة اطلاع، ويسرنى أن أقول أن هذا  
التعليق وتعليقات أخرى اعتر بها ستظهر فى الجزء المقبل من  
«الفسر».

ولا تزال كلماته فى احدى رسائله ترن فى أذنى:

«سأكتب لك دوماً لتشعر بالألفة وتنفى عنك شعور الاغتراب،  
وفى رسالتى الثانية أخبار من قلبى وحبى، وشعرى فى ذلك من بعد  
الخمسين، وكان صاحبكم الزهاوى يقول: (وأقوى غرام المرء فى  
حين يهرم!)».

وفى موضوع آخر يقول:

«طربت جداً وهزتنى أبياتك الجميلة المكيئة التى تنم على أنك  
شاعر بالطبع، وحبذا متابعتك فى الشعر بنشر خطرات طيبات يواتيك  
بها الإلهام الصافى.»

وقد وقفت معجبا عند قولك «أن ابن جنى ربما كان مخترعاً  
لاحدى العبارات أو الالفاظ أو الاخبار حديثاً رواه أبو عثمان

الجاحظ عن رجل يسمى المكي كان مخترعا للاخبار بشكل بارع  
عجيب .

ومن خير ما وضعه رحمه الله ثلاثة كتب: علم اللسان العربي،  
والفقه اللغوي المقارن، وتاريخ المعاجم والموسوعات العربية، ولحات  
من الموسوعات الغربية، وهي محاضرات ألقاها في كلية الآداب  
وكلية التربية بالجامعة اللبنانية، قبل أن يقعه المرض عن متابعة  
التدريس قبل وفاته بعام ونيف .

ولقد كتب في بعض رسائله متحدثا عن أبي الفتح وكان، طيب  
الله بالرحمة ثراه، شديد الاعجاب به:

«انه من أكبر التشريف لي أن أكتب مقدمة له تليق «بالانس  
والجن» غير أنه مضى للقاء ربه (وعجلت اليك ربي لترضى)، قبل  
أن تتحقق هذه الأمنية على أنه مع ذلك كتب تقريرا للجزء الاول  
لبعض دور الاذاعة أرجو أن اوفق في الحدول عليه، فأوشح به بعض  
أجزاء الكتاب المقبلة.

ولا مرية في أن المحاسنى كان دائرة معارف وموسوعة لغوية أدبية  
علمية دون بعضها وضاع الكثير مع الأسف اذ مات في أوج نضجه  
ولما يوفق الى تدوين كل ما كان يملأ ذهنه الواسع الجبار.

ولقد تأملت كثيرا عندما كتب الى في أخريات أيامه مشيراً الى  
احدى رسائلى: «قرأتها بالمنظار اليدوى، اذ أن نظرى ضعف لتناول  
الكورتيزون ضد الروماتزم» .

ووقفت لحظة اذ تذكرت المأسوف عليه الدكتور مصطفى جواد وكيف أن الكورتيزون الذى تناوله لمعالجة الروماتزم دمر قلبه، فكتبت اليه أن يقلل من تناوله إن استطاع الى ذلك سبيلا.

ولكن سبق السيف العذل، فقد مضى زين المجالس والمحافل وقاعات التدريس، سيد القرطاس والمنصة، ووالله لو شاء - كما قال أبو العتاهية - أن يجعل كلامه كله شعرا لفعل، فقد كان القريض يواتيه عن طبع سليم وسليقة أصيلة.

سأخيل صورته فى كل صفحة من صفحات «الأديب»، وأتوهم رسائله فى ثنايا الرسائل التى تردنى كل يوم، بل أسمع صوته مجلجلا من بعيد من قاعات الجامعة اللبنانية، وجامعة دمشق والسعودية!...

انه أكثر من أديب، وأكثر من شاعر، وأكثر من استاذ...

إنه رمز... أجل! لقد كان زكى المحاسنى رمزا مباركا من رموز الحرف العربى الأصيل.

\*\*\*

## الدكتور زكى المحاسنى فى اخوانياته

للشاعر الاديب

الاستاذ محمد عبد الغنى حسن - مصر  
عضو مجمع اللغة العربية فى دمشق  
والمؤلف الكبير فى السيرة والأدب

لن أتعرض هنا للنواحي العامة فى حياة فقيدنا المرحوم الدكتور زكى المحاسنى، فان أعماله فى التدريس بكلية الآداب فى جامعة دمشق ثم لبنان والسعودية وفى وظيفته المرموقة التى كان فيها سندا وعضوا لكل قاصد من السفارة السورية بالقاهرة، وفى وزارة التربية والتعليم، وفى محاضراته ومؤلفاته المشرقة الرائدة، لا تحتاج الى تعريف بها، أو وصف لها، لأن آثارها ماتزال ناضجة باقية. ولكننى سأتناول فى هذا الفصل من النواحي الانسانية عند الباحث الشاعر الدكتور زكى المحاسنى، وهى ناحية «الاخوانيات» التى ازدحمت بها حياته فى السنوات الاخيرة، والتى كانت تدل على وفاء من هذا الرجل قل ان نجده فى أبناء هذا الزمان.

وقد لوحظ بأخرة من الزمان أن الدكتور زكى المحاسنى قد أسرف فى الإخوانيات وأطال فيها وأكثر منها الى حد خشى معه النقد أن

يصرفه ذلك عن البحث الأدبي الاصيل، وأن يشغله عن الدراسات الأدبية الرصينة التي قد تتضاءل أمام قيمتها العلمية هذه المجاملات التي كان يوزعها الفقيه بكرم وسخاء. فقد لاحظ الأديب الناشئ حسين على محمد كثرة هذه الاخوانيات (المحاسنية) وتكرار بعضها، فوجه الى الفقيه رسالة من خلال عام ١٩٧١ يقول فيها: (في كل عدد من أعداد الأديب الزاهرة تطالعنا بقصائديك الاخوانيات، بل تكرر في أحيان كثيرة ما سبق نشره، مثل قصيدتك الموجهة لميخائيل نعيمة... إننا ننتظر مقالاتك القيمة وبحوثك الشائقة في الأدب العربي... فبالله لا تجمل «الاخوانيات» تطغى عليك...)

وقد كان أغلب الظن أن يفضب الدكتور زكي المحاسنى لهذه الملحوظة يديها أديب شاد من شدة الأدب فى مصر، ولكنه على الفور رد على الأديب المصرى ردا جميلا ثم أهدى اليه على سبيل الهدية نسخة من كتابه (أبو نواس شاعر من عبقر) ثم شفع الرد والكتاب بأبيات (اخوانية) يوجه فيها الكلام الى صاحب الملحوظة قائلا:

حسنا! أنت جمعت الفضل قاطبة

«محمد وعلى» فيه كالشهب

لسوف أترك إخوانية ذهبت

بالوقت والفكر دون البحث والأدب!

فكان هذا الرد الشعرى الطريف دليلا على تأصل الروح الاخوانية عند الفقيه...

وأغلب إخوانيات الدكتور زكى المحاسنى مصبوبة فى القالب الشعرى، وقد كانت سهولة النظم عند المحاسنى ومطاوعة القوافى له تدفعه الى أن يتخير لإخوانياته الكثيرة هذا الضرب من الكلام الموزون المقفى. وهو هنا متأثر بالطبع بشعراء العروبة على مر العصور فى شعرهم الإخوانى الذى كان يحتل قسماً ليس بالضئيل من دواوينهم. ولكنه فى بعض حالاته كان يلجأ الى النثر من إخوانياته. ولعله أراد بهذا أن يتحلل من الالتزام بدرج واحد، أو لعله أراد أن يغير فى إخوانياته بين النظم والنثر ليثبت قدرته على التعبير فى المجالين.

وكثيراً ما كان يجمع المحاسنى فى الإخوانية الواحدة بين النثر والشعر معاً، وكأنه يريد بذلك أن يمهد بالعبارة النثرية المرسله ما لا يستطيع أن يعبر عنه النظم المقيد. ففى تحية منه الى الاستاذ ألبير أديب صاحب الأديب ورئيس تحريرها تصادفنا التحية الإخوانية الآتية: (أخى الحبيب الاستاذ العظيم ألبير أديب. أعزك الرحمن.

لقد وجدتني فى ثبث الكتاب فى مجلتك الزاهية لعامها التاسع والعشرين، الفائز الاول فى عديد ما كتب فيها. فقد جاء الى جانب إسمى اثنان وعشرون موضوعاً، ولم يبلغ هذا المبلغ مثله أحد من إخواننا الاعلام من كتاب «الأديب» فى عامه هذا. ولو كان للاديب العزيز جائزة سنوية لفزت بها، لا بالتعديد، وانما بالتجويدا وأستغفر ربي! فما كنت مكاثراً بشئ ولا تياها، فربما كان موضوع واحد من أجواد الأديب يعدل عديدي، ويفوق جديدي.

وجاشت النفس بهذه الأبيات لمجلتنا التي عشنا على أدبها ولم  
نتحول فلها الهناءة في عامها الجديد (١٩٧١) ثم أعقب - رحمه  
الله - هذا التمهيد النثرى الموضح لظروف التحية بالأبيات الاخوانية  
التي يقول فيها للاديب وصاحبه:

قل للاديب وعين الله ترعاه  
أقمته أدبا يعلو به الجاه  
فأنت «جامعة» تسعى روائعها  
من كل قطر له في العرب مغناه  
إن قيل «مدرسة الفكر» كنت بها  
مريدها، وبها لفظي ومعناه  
لها التهاني في عمر تكون به  
كعهدا عالما فاقت مزايه  
كتابع من بنى ذبيان قلت لها  
وعد لبنان قد زادت عطايه  
ألبير؟ أنت كشمس غير حاجبة  
لدى السطوع كنجم شع - مسراه  
لعثت في دولة الافكار مشرقها  
تزداد عمرا بمجد طاب رياه

وإذا لاحظنا في هذه التحية الاخوانية للاديب وصاحبها الجمع  
بين النثر والشعر، فاننا نجد المحاسنى فى تحية الى الاستاذ الفولكورى  
المهامى عبد القادر عياش بمناسبة صدور كتاب له عن مدينة «الرقّة»

يلجأ الى النشر وحده فيبعث الى هذا المؤلف الخصب الانتاج فى الأدب الشعبى بتحية نثرية موجزة يقول فيها مخاطباً صاحبه: (ولو ألف عالم عربى أو فرنجى موسوعة حديثة للمدن والاقاليم فى دنيا العرب لجاء بحثك فى «الرقعة» مثال قصده، ومحط علمه. ولعل روح الجغرافى العظيم ياقوت فى معجمه البلدانى قد سرت اليك روحه بالعبقرية، حتى رحت أتخيل أنه هو ذاته يتلهف على أن يكون قد جاء فى هذا العصر، وكتب عن «الرقعة» مثلما كتب من قديم الزمان حتى يومنا الحديث).

على أن تحية إخوانية أخرى للدكتور زكى المحاسنى قد ارسلها الى المرحوم العلامة قدرى حافظ طوقان حول (الاستقصات) الاربعة المعروفة عند القدماء، وهى الماء، والهواء، والنار، والتراب. وقد زاد عليها المحاسنى عنصراً خامساً وهو: الانسان..

ومن اخوانيات زكى المحاسنى النثرية تحية للاديب الاستاذ سعد صائب بمناسبة صدور كتابه أو ديوانه عن (الأم) الذى نقله الى لغة العرب (بتعبير كريم، وأداء سليم).

ويبدو ان المحاسنى لجأ الى لغة النشر من هذه الاخوانية لينطلق الى الحديث عن الشاعر البلجيكى موريس كايم الذى مجد أمه فى ديوان خاص، وليستحضر ذكر الشاعر البلجيكى الآخر موريس مترلنك: (الذى دخل الى فؤادى ولم يخرج منه حتى الآن باحتلال شعرى) كما يقول زكى المحاسنى. كما لجأ الى النشر أيضاً ليجد المجال واسعا

فى التعبير عن مواجهه بأمه - رحمها الله - التى كثيرا ما كان يشير إليها والى صلواتها ودعواتها، والتى يقول فيها من هذه الاخوانية الصائبية: (روحى بعد ان فقدت أمى منذ أكثر من ثلاثين عاما ألوب عليها، وافرك جفونى قبل النوم على أراها. لكن خيالها الحبيب غاب عنى وأستعصى منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وما عدت أراها فى نومى ولولا صورتها، وحدة خيالى فتمثلها لعددت يتمى شكلا ران على فؤادى).

وقد يكون الجمع بين الشعر والنثر فى اخوانيات زكى المحاسنى على قدر متساو بينهما فى الطول والنفس، فللنثر مثل ما للشعر فى احدى اخوانياته من قدر وطول، حتى لكأنه - رحمه الله - كان يفصل كل ثوب منهما على صاحبه. ولكننا نجده أحيانا يطيل فى النثر، ويحلوه الكلام فيه، فيكثر التحية نثرا الى أن تقارب ختامها، فيختمها بيت واحد أو بيتين من الشعر، كما فعل فى اخوانيته الى الاديب المغربى الاستاذ عبد الله كنون حين اهدى اليه نسخة من كتابه «لقمان الحكيم» المطبوع بدار المعارف بمصر. ففى هذه الاخوانية يستطرد زكى المحاسنى - كعادته - الى ذكريات له مع أدينا المغربى اللامع، والى ذكريات أخرى له مع وزير المعارف فى مصر نجيب الهلالي باشا، والدكتور طه حسين، ويخلص من هذا الاستطرد الى مدح صديقه عبد الله كنون ووصفه بأنه (درة الآداب وتاجها، وموئل المجمع اللغوى فى مصر والشام)، ويختم هذه

الذكريات النثرية ببيتين اثنين لا غير فى مدح الاستاذ كنون يقول  
فيهما:

لئن طلعت شمس الكواكب فى الشرق  
فشمسك فى الآداب تطلع فى الغرب  
كذا زين الانسان فى الكون صنعه  
فيا باقع التأليف والفكر فى الغرب

ومجالات الاخوانيات عند الدكتور زكى المحاسنى تتسع باتساع  
المناسبات التى تفرضها، والظروف التى توحى بها وتمليها.. فهو تارة  
يحيى أخوا له بمناسبة صدور كتاب له، وكأنه جعل تلك التحايا  
فرضا لا يتخلى عنه، ولا يرتاح حتى يؤديه. وسواء أكان الكتاب  
المؤلف الذى يستقبله المحاسنى شعرا أم نثرا أم بحثا أم رواية أم كتابا  
علميا، أم دراسة فى أى باب من أبواب المعرفة. فاذا ظهر كتاب  
للاستاذ الباحث الشاعر العراقى هلال ناجى عن (الشاعر الزهاوى)  
رأيت المحاسنى يحييه بأخوانية تبلغ أبياتها عشرين بيتا، يقول فيها:

يا هلالا ناجيته بخيالى  
عاش ملء الفؤاد، عف الوصال  
أسمع العذب فى لغاه بلفظ  
فيه لحن العراق حلو المثل  
فى ضفاف النيل التقينا على  
شعر وفكر فكان زين احتفال

إيه ناجي: حفزت ذكرى الزهاوى

والزهاوى مربب الاجيال

أنا أسمعته عشية حفل

مجمع الشام شاده للمعالى

كنت فى العنقوان والشرخ أروى

شعره الحر فى فدا الأبطال

وإذا صدر ديوان «حصادالذكريات» للشاعر الاديب عبد الله

يوركى حلاق رأينا زكى المحامنى يستبق الى استقباله وتحية صاحبه

بأبيات إخوانية يقول فيها:

يا حصاد الذكريات

أنت لملمت حياتى

إيه عبد الله يوركى

أيا زين الرواة

عشت نرعى «الضاد»

فى العز لدى العرب الاباة

وإذا صدر كتاب «أدبنا الضاحك» للاستاذ عبد الغنى العطرى

نرى الدكتور المحامنى يسرع فى تحيته بكلمة نثرية طويلة بعض طول

- على غير ما عودنا فى تحياته القصار - يسارع فيها بذكرياته الى

أدب الجاحظ الذى أمثلا ضحكا ومرحا ثم يعرج على فن الضحك

عند الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون، ثم ينتقل الى ذكرياته عن

استاذة الفيلسوف «نعيد البحرة» الذى سمعه المحاسنى يقول:  
«الضحك يمسد الاعصاب» ثم يعقب على هذه الخاطرة العابرة  
بقوله: (وكانت تذكرنى كلمته هذه بأى فائق، وهى جارة لنا عرفتها  
وأنا طفل يتيم دون العاشرة، فكانت زوج عمى، المبعدة عنى أُمى،  
اذا أصابنى هزال أو حرارة جسم أخذتنى الى تلك الجارة، فطرحتنى  
على ظهرى، وكشفت عن بطنى، وجعلت تدلكه بزيت من عندنا  
فيه نعناع وتقول: لقد مسدت معدته: فلما سمعت استاذنا البحرة  
يقول: «الضحك يمسد الاعصاب آمنت بمفهومه العجاب...»

وإذا ظهر ديوان شعر باللغة الفرنسية للشاعر اللبناني هكتور  
خلاط، رأيت الدكتور زكى المحاسنى يرد الهدية بأحسن منها.  
فيهدى الى الشاعر خلاط نسخة من كتابه «أبو نواس شاعر من  
عبقرة» ومعها أبيات اخوانية للشكر على الهدية يقول فيها:

أيا شاعرى هكتور يابلسم الدنيا  
لشعرك آيات تبادلنا النجوى  
لك «الفرحة» الباقى هواها على المدى  
كأن ابتسامات الحظوظ بها تشرى  
أيا مشعلا للحق والخير، والوفا  
فديتك لو عمر بعمر أخ يفدى...

وإذا أصدر الاديب محمد رؤوف بشير مجموعة من القصص  
بعنوان «رحلة الخفاش» رأينا المحاسنى يستقبلها بأبيات يعقد فيها بين  
الناس والخفافيش ويقول فيها:

من «رحلة الخفاش» رمز الناس  
من ماتم يسعون للاعراس  
هم شابهوه بشكله، ويطبعه  
ومطافه فى الليل كالحراس  
لكنهم لم يملكوا راداره  
فنيا بهم ما رق من احساس...

وهكذا ننتقل فى إخوانيات زكى المحاسنى المتعلقة بصدر  
المؤلفات، من روضة الى روضة. وان كنا لا نعدم له شعرا اخوانيا أو  
رسائل اخوانية من مناسبات اهداء أخرى غير اهداء الكتب التى  
يصب فيها المؤلفون نفحات عقولهم... فحين اهدى اليه الاديب  
الباحث العراقى الدكتور صفاء خلوصى صورته الفوتوغرافية رد  
صاحبنا على هذه الهدية بأبيات أخوية يقول فيها:

يامهديا لى صورة للقاتى  
إنى وجدت بها مثال هسفائى  
لولا الخيال ورسوم أحباب لنا  
لرمى البعاد ودادنا بجفاء  
خلف الجفون جمعت أشكال الرؤى  
فى صورة الأحباب والخلطاء  
سجلتهم فى القلب فى «ألبومه»  
يفتر عن وجد وعن سراء

وشعر المحاسنى من الاخوانيات يتدفق فى أية مناسبة مهما صغرت... وسواء حضرت المناسبة أم استحضرها هو ليقول فيها ما يريد أن يقول.. فلقد شاءت الظروف أن يعود أخونا الاديب اللماح «وديع فلسطين» الى مصر بعد أن ضاقت به ليبيا بصمت تجلله الدهشة، ولكن الدكتور زكى المحاسنى استقبل هذه «العودة» الجبرية بأبيات من اخوانية يقول فيها:

عاد الهزار الى منابه

فقل السلام على سواجمه

قد كنت شط النيل أنشده

شعرى وأمرح فى مرابه

لى فى رى الأهرام فيض هوى

قد راح يغربنى بنابعه

واللطف فى اخوانيات زكى المحاسنى أن الواحدة منها تجمع فى سمطها بين أكثر من أخ واحد. ففى أخوانية له الى الاديب الباحث أنور الجندى يعرج - كرمأ منه رحمه الله - على محمد عبد الفنى حسن وشعره وأدبه، وعلى وديع فلسطين واغترابه فى ليبيا، وعلى الشاعر محمد طاهر الجبلاوى، وعلى عباس محمود العقاد، فيقول مخاطباً صديقه أنور الجندى:

كيف «عبد الفنى» ذو الحسن إذا

لنراه أديبنا العلاما

أنا شاهدته على قمة الأهرام  
نسرا محلقا، مقداما  
شعره العبقري منحة الهام  
يطوف البلاد، يطوى الشاما  
«وديع» أخو «فلسطين» كانت  
لهفات منه تفوق الوثاما  
فاحتوته ليبيا غريبا، وحيدا  
أين آدابه وأين الندامي؟  
وعلى النيل من جيايرة المجد  
هداة عرفت فيهم كراما  
«فله حسين» عيني، «وللعقاد»  
قلبي لو استطعت مراما  
وإذا شمت «طاهر الجلاوي»  
فأقره من مشوق ود سلاما

وفي اخوانية الى الاستاذ وديع فلسطين اثر عودته الحتمية من  
طرابلس الغرب يجمع في السمط بين ولده «باسل»، وابنته «هناء»  
حرسهما الله. وفي اخوانية الى الدكتور صفاء خلوصى يضم الى  
السمط الاديب العراقي اللامع الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين،  
وهكذا حتى لتكاد (الاخوانية) من شعره - أو نثره - مجمعا وملتقى  
لعدد من الاخوان ممن يصفوهم الود، ويكن لهم الحب والتقدير.

وبلغت نظرنا فى اخوانيات زكى المحامسى ولعه الشديده بطائفة من  
المحسنات البديعية، حتى لا تكاد تخلو منها اخوانية واحدة.

ولعل آخر ما كان بينى وبين اخى المرحوم الدكتور زكى المحامسى  
من شعر اخوانى هو تلك القصة التى حبك القدر الذى لا مفر منه  
خيوطها بإحكام عجيب فقد طالعتنى الاخ الاستاذ وديع فلسطين  
ذات يوم من أيام الربيع سنة ١٩٧٢ نبأ تعيين زكى المحامسى عضوا  
بمجمع اللغة العربية فى مصر تقديرا منه لما اشتهر به من علمه  
وأدبه وحفاظه على لغة الضاد، واستدراكا لما أخطأه من انصاف  
الزمان له. وسرنى النبأ سرورا كثيرا، وكتبنا اليه رسالة موجزة اهنته فيها  
بهذه العضوية الكريمة أذكر منها قولى: (على كل حال لقد زنتم  
العضوية، وشرقتم الزمالة الجمعية، فكسب بكم أكثر مما كسبتم  
منها، وريحت بوجودكم فوق ما ربحتم منها فبمثلكم يا أبا الشموس  
المضيئة، والوجوه الوضيئة تهنأ بالجمع، وتشرف المحافل. لذلك لا  
أهنئكم بالجمع، ولكن أهنئ الجمع بكم. وما كثير عليك أيها  
الصديق القديم هذا التكريم الذى صادف أهلا، ووافق محلا،  
وأصاب موضعا. حفظك الله للادب والعرب، وأدام علينا نفحاتك  
من الشعر، ولحاثك فى النشر، ورعايتك للأخوان، وتخفيفك  
بالاصدقاء، وأسمعنا دائما من ملاحمك وملاحنك ما تطرب به  
الأذن، ويهفو له القلب، وتعزز به العروبة، ويعتد به الاسلام...)

وما كادت تبلغه رسالتي هذه حتى بعث الى بأربعة أبيات فهمت  
منه انه كتبها وهو طريح الفراش ، صريح العلة يقول فيها:

ياشاعرا في قمة الهم  
روحي فذاك على المدى ودمي  
هنأتني بالمجمعي، ولى  
حب بمصر مزاحم حرمي  
إن يهف قلبك قلت معلمة  
آدابها خفاقة العلم  
من نيلك المحبوب كاس صفا  
تروى ليوم الموت طى دمي  
وما كادت أبياته الوفية هذه حتى وجدنتى أرد عليها بهذه  
الأبيات:

أتحفتني بروائع الكلم  
يا فكرة في خاطري وفعي  
هذا مكانك غير مزدحم  
في مجمع بالفضل مزدحم  
الخالدون دعاك مجمعم  
فاجبت سباقا الى الكرم  
ثم الأريج على فضائلكم  
والفضل يشي غير متكتم

آثار علمك غير خافية  
ودليل فضلك غير متهم  
لك في سباقك للعلا قدم  
سياقة، خواضة القمم  
والله ما كذبت فراستنا  
في الصاحب المختار من قدم  
كانت حواضره تبشرنا  
بغد على الآفاق مبتسم  
تجرى العروبة فى مفاصله  
جرى الندى فى أسمع القديم  
لك سيرة فى كل مجتمع  
فى الشام، فى الاهرام، فى الحرم  
أما الوفاء فانت صاحبه  
يا حافظاً للعهد والذم  
لست المهناً باختياركم  
لانى أهنى دولة القلم

وما كنت أعلم بعد هذا أن القدر يخبى لصاحبنا شيئاً، وأن أبياتى الاخوانية السابقة قد شاء لها الله أن تنشر فى مجلة (الاديب) فى العدد الذى يرثيه فيه بدموع الوفاء حفنة من كرام الشعراء والادباء. رحمه الله وجزاه عن الادب واللغة والعروبة خير الجزاء.

## فقيه العربية الدكتور زكى المحاسنى

علامة مكة المكرمة الاستاذ  
أحمد عبد الغفور العطار مؤلف  
الكتب القيمة فى اللغة والادب والقضايا  
العربية والاسلامية

منذ شهر ذى الحجة من سنة ١٣٩٢ وأنا أتفقد أصحابى فأفقد منهم كراما كانوا أرقى النماذج فى الخلائق والمكرمات والعلوم والآداب. وكلما مضت أيام تهتز شجرة الحياة فتتساقط منها ثمرات ناضجة.

فعندنا محمد سرور الصبان، حمزة شحاتة، وإبراهيم اسلام، فالح المهدي، وعبد الرزاق حمزة وغيرهم...

واليوم يبلغنى نعى أخ كريم عالم اديب وشاعر كبير هو الدكتور زكى المحاسنى الذى لقى ربه وهو بمنزله فى دمشق.

ولقد كان زكى المحاسنى انسانا صافيا اجتمعت فيه خلائق

إنسانية لانجدها الا فى قلة من الناس.. كان زكى المحاسنى كريما  
محسنا، ساعياً إلى الخير لا ييخل على قاصديه، فيتته - أنى كان -  
يزدحم بهم، ويجدون لديه ما يرجون من الخير فوق ما يرجون.

شهدت بيته فى القاهرة - عندما كان يهىء رسالة الدكتوراه -  
مزدحماً بطلاب العلم وأهله، ولم يكتف بأن يعطيهم مما أنعم الله به  
عليه من العلم وحسب، بل كان يعطيهم الخلق الفاضل العظيم،  
كما كان يساعد المحتاجين من طلاب العلم، ويسعى فى سبيلهم.

وقد ركبتة ديون من جراء سخائه، ولم يكن دخله فى دمشق  
يكفيه، فاضطر الى العمل استاذاً بكلية الشريعة فى مكة المكرمة  
حرسها الله، واقام فيها سنة دراسية جمع خلالها ما يكفى للتخفف  
من ديونه كما تخفف من همومه بحفاوة صحبه.

وخير مؤلفات الدكتور المحاسنى كتابه (شعر الحرب فى أدب  
العرب) وحسب هذا الكتاب فخرا أن يشيد به كاتب العربية الاكبر  
الاستاذ عباس محمود العقاد ويقول فيه:

كتاب كبير الحجم والفائدة، يقع فى أربعين وثلاثماية صفحة  
من القطع الواسع والحرف الدقيق، وموضوعه (شعر الحرب فى أدب  
العرب) فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة، وكان  
المؤلف الفاضل لم يهمل شيئاً يتصل بهذا الموضوع من أيام الجاهلية  
بالقدر الذى يقتضيه المقام وتتسع له الصفحات، ولم يهمل خبر  
الملاحم وقصائد الحماسة فى اشعار الامم غير العربية، مستطردا مع

ذكر الغزوات وما ينظم فيها من المفاخر أو يدور عليها من الاحاديث والاساطير.

وقد اعتمد المؤلف على ذوق الأديب وتمحيص العالم فيما اختاره من القصائد والمقطوعات، وفي المقابلة بينها وجوه المشابهة والمخالفة منها على حسب المشابهة أو المخالفة في أحوال العصور وملكات الشعراء وأساليب الشعر من جانبه الفنى ومن جانبه المنصل بالاخلاق والحوادث، ف جاء كتابه زبدة منتقاة وذخيرة ممتعة تجمع للقارئ ما تفرق بين مئات المراجع وتزيد عليه ما لا تجد في تلك المراجع من تعليقات النقاد ومواضع الاستدراك التى يهتدى اليها الباحث، والمؤرخ، ويودعها خلاصة تفكيره وملاحظته فى هذا الموضوع.

وقال العقاد:

«ولا نظيل التمثيل لمحاسن الكتاب فان الأمر يلجئنا الى الاختيار وليس أصعب منه فى كتاب هو نفسه قائم على الاختيار أو على حسن الاختيار، وقدرة مؤلفه على إحسان اختياره مكفولة بما يتيسر له من سعة المادة وما توفر عليه من سعة الاطلاع، فخير ما يوفى به حقه من الاستحسان هو أن يوفيه القارئ حقه من المطالعة وإنعام النظر والمشاركة فى التعليق والاستدراك».

والدكتور المحاسنى - رحمه الله - زوج الادبية الكبيرة الفاضلة الاستاذة وداد سكاكينى وهو يعزو اليها الفضل فى دراساته ومؤلفاته، فقد هيات له الجو الصالح للقراءة والكتابة والتأليف وكانت له أكبر مرجع أدبى وعلمى فى بحوثه وبخاصة فى رسالة الدكتوراه، فهى -

مد الله عمرها - مرجع المراجع ومصدر المصادر، اذ كانت تهىء له المصادر والمراجع وتنقل له منها ما هو بحاجة اليه فى بحثه وتنقيبه وإعداده.

وندر أن يكون فى بيئة الادباء زوجان من طرازهما، فكلاهما ذو مشرب ومنزوع ومذهب، لاختلاف فيه، وكلاهما معروف بالاعتدال وحسن الخلق والبعد عن الهوى.

وكان الدكتور المحاسنى - يرحمه الله - قد بدأ منذ سنوات فى نظم الملحمة العربية الاسلامية - وقرأت بعضها فاذا هو شعر رائع، وما أدرى أتمها، أم لم يتمها؟ وعلمت أن آخر كتاب له تحت الطبع بحث كتبه فى (الشاب الظريف)<sup>(١)</sup> عصره وشعره وحياته.

يرحم الله الدكتور المحاسنى، وأحسن الله فيه عزاء زوجته الأدبية وأولاده ومحبيه، وغفر له، وأسكنه الجنة.

---

(١) ظهر هذا الكتاب بعد وفاته، وناشره هو السيد محمد تحسين موسى صاحب المكتبة العباسية بدمشق.

## الدكتور زكى المحاسنى فى نفحاته الاندلسية

للاديب المؤلف وأستاذ الأدب الاندلسى  
الدكتور محسن جمال الدين  
كلية الآداب - بغداد

مثلما يسقط (الشهيد) فى ساحة النضال، وهو يحمل بيده راية العزة، والكرامة، فى سبيل وطنه، وأمته. سقط ذلك الفارس المعلم فى ميدان الأدب، والنقد، والشعر، والملحمة والسيرة، الاستاذ الصديق المرحوم (الدكتور زكى المحاسنى). بعد أن خلف وراءه أسفارا وصفحات، مضمخة بطيب الحديث، وروعة الاسلوب، ورقة الحاشية، وسعة الاطلاع، وأمانة الكلمة، والتراث، وشموخ الكرامة.

منذ ثلاثين عاما عرفت الدكتور المحاسنى، وهو الذى نور باسمه الصفحات السود من أعمدة الصحف، وجداول المجلات. فما أن تطل على العالم العربى، والفكر الشرقى مجلة اسبوعية، أو شهرية محترمة، ذات طابع أدبى أو فكرى، الا وتتملى النواظر اسم الدكتور المحاسنى، فى الصدارة.

فهو كاطلالة الفجر فى بواكير نيسان، ونفحة العطر فى جنائن  
(جنة العريف)، وجمال الشروق فى مشارف (الغوطة)، ونسمة  
العافية فى رياض (الطائف)، وعبق الشذا فى أرياض (بغداد)، وأصالة  
الارز فى أعالي (لبنان)، وهدهدة الماء فى نهر (النيل)، وارتفاع  
السمو فى هضاب (المغرب) العربى، وأريج الايمان فى (الحرمين  
الشريفين)!!

هو (كطائر الحب)، لطيف النفس، عذب اللفظ، جميل الحيا،  
رقيق الشعور، تستهويه كلمة الصداقة، وتشده أوامر الاخوة والمحبة،  
مع روح ظاهرة فى الظاهر والباطن.

هو أشبه بصفات الصوفيين الطيبين، الذين لا يحملون الحقد فى  
جنبات صدورهم، ولا الأنانية فى طيات أردبتهم، ولا الغرض المادى  
فى طريق أهدافهم.

لم يسخر قلمه يوما لدرهم زائل، ومادة تصرف. ولم يبع ضميره  
لدنيا لعبوب، وأغراض تنقضى. بل كان قانعا بما لديه، يلبي صوت  
الأدب الحى، ويسعد القلب المكلم، ويرسل البسمة للباكين،  
والمساحة والود للمتباغضين، والتواضع للمغرورين!!

هو سفير للبلاد العربية وثقافتها بلا سفارة. له مكانته فى العالم  
الاوروبى وأنديته الادبية، وبين أسماء اللامعين من مفكره  
ومستشرقه.

ومن علو منزلته فى نفوسهم ان المستشرق الاسبانى الكبير (رامون

منيدت بيدال) منحه الكثير من تقديره ومراسلاته الأخوية، واعتبره أحد زملائه فى الدراسات الاندلسية الاسبانية. كما أن الدكتور المحاسنى (رحمه الله) لم ينسه بروائع قصائده التى نشرها فى (الاديب).

اننا الآن والألم الممض يحز فى نفوسنا نقول: إن (زكى المحاسنى) لم يخسر شيئاً من الحياة، لانه ربح الحياة، بما لديه من ثروة أدبية، ومؤلفات نضرة، واخوان مخلصين، وأصحاب مقدرين، وطلاب ذاكرين.

كلنا نذكره كما يذكر الربيع بأزاهيره، والشمس بحرارتها ودفئها، والبدر فى نوره واطلالته، والأدب بشعره ونثره.

والآن ما هى حصة (الفردوس المفقود) و (المجد الموعود). أى بلاد (الاندلس) من ثمرات عبقرية الدكتور زكى المحاسنى؟ وهو الاستاذ المعنى بالأدب العربى وتاريخه منذ أقدم عصوره الى اليوم.

الحق انه لم يبخل فى مناجاة (الاندلس) والكتابة عنها، وأظهار أمجادها العربية الاسلامية. فله قصائد متعددة، أحياناً يمر عليها مسرعاً، وأخرى يقف عندها متأملاً!!

ومن أهم قصائده التى خصصها يراعه السيال، وفكره النير، وشاعريته السمحة، ثلاث قصائد:

الاولى: خذنى لأندلس.

الثانية: غرناطة.

الثالثة: إشبيلية.

وفى هذه القصائد يجد الباحث أن الشاعر الدكتور (زكى المحاسنى)، قد ربط بين الفروسية العربية، والامجاد الاسلامية الباقية فى تلك الديار.

وهو لا يجد نفسه غريبا عن شعب الاندلس المعاصر فى (اسبانيا) اليوم. فان سمرة المصارع، وجمال حبيته الفاتنة، وروح الشجاعة فيه عند مصارعة ثور هائج مخيف، كلها لدى الشاعر سمات عربية، وجرأة عدنانية.

والغريب أن أشعار المرحوم المحاسنى فى مجال الأندلس كلها تدور حول ربط الماضى بالحاضر وعلاقة كل منهما بالآخر. أما الذين وصفوا الاندلس ممن سبقوه أو عاصروه، فكان أكثر حديثهم هو عرض الماضى وعظمته والاشارة لبناته وصانعيه.

وفى قصائد (شوقى) وهو أبرعهم، والامير (شكيب رسلان) وهو أبلغهم، (وأبو الفضل الوليد) وهو أغزرهم !! وغير هذه الكوكبة الرائدة. كلهم وهم الذين زاروا الاندلس ومروا به لم يتطرقوا الى (مصارعة الثيران) فى اسبانيا، كأثر يدل على شجاعة الرجل الاندلسى، السائرة فى عروقه الدماء العربية.

أما شاعرنا (المحاسنى) فهو يختلف عنهم بصراحته، وقوة اندفاعه، وحرارة محبته. فليس فى شعره وعظ الواعظين، ولا فى قوله تدليس المدلسين، ولا فى خياله جنوح المنهزمين، ولا فى كلماته برودة المستضعفين.

ولا أدرى هل هناك من قصائد أخرى غير التى ذكرتها مستظهر

من آثار (المحاسنى) عن (الاندلس) ؟ أو فى نشيد من أناشيد (ملحمته العربية) . ٢.

أرجو أن يكون ذلك !.

أما أسماء أبطال قصائده الاندلسية فهى :

(غرناطة) وقصرها الزاهى الاحمر

و(قرطبة) ومسجدها السامق العظيم

و(اشبيلية) ومنارتها الجميلة السماء

و(رامون) فيلسوفها وكاتبها الشهير

و(انطونيو) مصارعها المغامر الجريء

و(ماريا) راقصتها البارعة الساحرة.

أن الشاعر المحاسنى - طيب الله تربته - وعطر ضريحه . نراه أحيانا يعيد الصورة فى أغلب قصائده الاندلسية ويؤكد عليها فى أكثر مناظرها وشخصياتها . ولا ينسى ايمانه القدسى ، وصلواته المعطرة فى رحاب (مسجد قرطبة) . وفى أمجاد (قحطان) وذكريات (دمشق) ١١ .

أما أروع قصائده التى بين يدي : صورة ، وأسلوب ، وبناء ، - ووحدة . فهى قصيدة (خذنى لأندلس) وقد جاء فيها قوله :

يا بنت اندلس كرى بخاطرة

فخفق قلبك منهم فى دم سكب

وأنت يا فتنة الأنظار طيف ندى  
قد جال فيك من العراء وانسربا  
العين فيك بها كحل بأسوده  
عيون غيد عرابٍ رفرقت هدبا  
والقصر في بهجة الحمراء آتية  
أرواحه من خيام شدد الطنبا  
في أرض (قرطبة) لى مسجد عقب  
بالطيب قرآنه ما زال مقتربا  
ياليث لى سجدةً فى صحنه فأرى  
تلك العواميد من فن البنا عجبا  
كانها وقفت دهر الصلاة فما  
تبغى السجود سوى فى موعد كتبنا  
حن الدم العربى اليوم فى دمهها  
فأطلعت فى هوى عدنان ما غربا  
أما قصيدته الثانية فهى (غرناطة) وقد جاء فيها:

حيث (غرناطة) وازددت أكوابى  
شرباً على نخبها واهتجت أحبابى  
فقلت يا أخت أقوامى أما سنحت  
لنا لقاءً مشتاق وغياب  
يا دار أندلسٍ ما رُم فيك هوى  
لكن ترم قلبي بعد أو شاب

ألا يزال لعرب فيك منسرح  
يروح بالروح من مسحور ألباب  
وهل صهيل خيول من معاركهم  
تموج فرسانها في طي أحقاب  
أرى المصلى على التكبير مائلة  
صلاته في تسايح بمحراب  
لابد من روعة الذكرى لوأصفها  
إذا تغنى بها في جمع شراب

ومنها:

للمم لى العمر من بعد السنين فما  
أحلى الحياة بزورات لأصحاب  
.. قيثارة من صبايا لحن أندلس  
يهفو لنغمتها الموتى بأسباب  
من (معبد) نبعها في الدهر مانحة  
بها التناغم من إحياء (زرياب)  
فلم أجد طائفاً فى أرض (أندلس)  
ألا تولاه وجدان بإعجاب  
أهلوك أعراقهم تسرى بمثل دمي  
فلست عندهم من قوم أغراب

وختمها بقوله:

(غرناطة) يامحيا السحر في بلد  
جنات عدن به حفت بأعنان  
عليك منى سلام (الشام) طاب به  
نفع الريحين من جنات طياب

أما القصيدة الثالثة (أشبيلية) وهي دون القصيدتين السالفتين قوة،  
وسحراً وخيالاً، فقد جاء منها قوله:

وجدى (باشبيلية) أبقي  
فاكتم هواى وعاطنى صدقا  
عرية فى وجهها شبهى  
هلا رددت لها الهوى شرقا  
شاهدت آثار الجدود بها  
وتركت أحجاراً لما تلقى  
حنت الى وطنى لتشفقه  
والشام عطر أمية حقا  
قالت تعال أريك مآثرة  
بلدى بها فى عصره يرقى  
.. سأعود لا ألقى سوى حجر  
من قومى الماضين يستبقى  
تلك (الجيرالدا) وهى مرقنا  
فى الارض ليت دموعنا نسمى

في برجها جرحى أضمه  
جرحى يفوق قياسها عمقا

بقيت هناك كلمة تجول في خاطري، وتعمق جروحها في  
قلبي. ترى متى ينصف العالم العربي أبنائه النوابغ، ورجال الفكر  
والادب فيه؟؟

ومتى تقوم الجامعات والمعاهد الثقافية في دنيا الشرق العربي  
بالاهتمام بمن خدموا اللغة العربية، وتراثها، وتاريخها؟؟.

وهل تنهض (دمشق) وهي السبابة في العصر الحديث الى الدفاع  
عن اللغة العربية، بتسمية كرسى للادب العربي باسم (الدكتور  
زكى المحاسنى) وهو أحد أبنائها من الطلائع في بث روح المقاومة،  
وبعث القوة، والإباء، ضد خصومها، وأعدائها، ومستعمرها!!!

إن اساتذة (الادب الحديث) في الجامعات العربية مدعون  
لتكليف طلابهم تحت اشرافهم في تحضير بحوث أو دراسات جامعية  
كل واحدة تتناول (الدكتور زكى المحاسنى) في ناحية من نواحي  
أدبه.

فهذا يتولى دراسة شعره و (ملحمته العربية).

والآخر يبحث في نثره ونقده وكتبه.

والثالث في ترجماته ومراسلاته.

وعسى أن أرى يوما في عالم النتاج الادبى الحديث، وعلى

واجبات مكتبته، ورفوف خزائنه، مجموعة من الكتب، وقد صدرت عن المرحوم الخالد (الدكتور المحاسنى) وعن العوامل فى كثرة انتاجه وعبقريته الثرة الغنية.

وانى لتعاودنى قبل أن أختتم هذه المقالة المتواضعة. أبيات من قصيدة الشاعر المرحوم العراقي السيد (محمود الجبوي) فى رثاء صديقه الشاعر المعروف (اليعقوبي) رحمه الله. حيث قال من قصيدته (والهفتاه) 11.

وبح الثرى كم طوى من أخوة كرموا  
فانشر حديث علام أيها القلم  
كانوا المصاييح أفكاراً مشعشةً  
يهدون من جهلوا منا بما علموا  
كانوا بهم يتباهى العصر مزدهياً  
كأنما هم سجايا العصر والشيم  
كانوا كما يتمنى الناس أمثلة  
للخير - أمثالهم فى الناس قد عدموا  
كانوا الملائك أرواحاً مطهرةً  
ما مسها منذ كانت بعض ما يصم  
كانوا الحماة لهذا الشعب ما تركوا  
عنه الدفاع فقال الشعب بعدهم  
كانوا يدى وسنانى كم طمنت بهم  
خصماً، وقد جاء منى اليوم ينتقم

سلام الله على روحك المحاسنية الطيبة، يا أبا الطيبين !!

وتحية لك منى مشوبة بحسرة البعد، الذى كنت أمنى النفس يوماً  
فى أن يكون بعده لقاء. وأنت الذى أحبك الروح، قبل أن تراك  
العين.

\*\*\*

## استاذى الدكتور زكى المحاسنى

### خواطر وذكريات

للقصصى الاديب<sup>(١)</sup> :

الدكتور بديع حقى

الدبلوماسى فى الخارجىة السورية

كنت قد استشرفت السادسة عشرة من العمر، حين عرفته، لأول مرة، معلماً لى فى الصف الثامن من مكتب تجهيز عنبر.

وامتدت نظرتى - شعاعاً مستطلعاً بين حزمة الاشعة المتشوقة الشاخصة من عيون رفاقى فصافحت، عندما دخل حجرة الدراسة، قامته المشيقة، المنتصبية - وكان ربعة، الى الطول - ورأيت اليه يمضى، فى حيوية الشباب وعنفوانه، الى كرسى قابع خلف المنضدة.

وكننا وقوفاً، فأشار بيده اشارة تحمّلنا على الجلوس، وتبادلنا همسات

(١) بدأ الدكتور بديع حقى أده شاعرا فى ديوانه «سحر» ثم انصرف الى فن القصة موهوباً ناشراً كتابه فى هذا الفن «التراب الحزين» و «جفون تسحق الصور» وقد نقل الى العربية روائع طاغور وغوغول عن الانكليزية والروسية.

مقتضبة يسيرة: أن معلم اللغة العربية هذا، هو، فيما يبدو، معلم رقيق الحاشية، لطيف. بذلك تشي قسما وجهه الطيب السمع.  
وأجال معلمنا نظرة في تلاميذه، واقتحمتني نظرتة العابرة ثم ارتدت إلى، كأنما انست شبيهاً بشخص يعرفه فسألني عن اسمي؟  
قلت: بديع حقي.

- وما قرابتك بالدكتور وحيد حقي؟

- انه أخي...

- وأين هو الآن؟

- انه منفى بالعراق، مضى اليه اثر الثورة السورية، لأنه كان يعالج الشوارجرحي. قال:

- كان أخوك، ردُّ الله غربته، ومدَّ في عمره، استاذاً لي في صف الفلسفة، وله فضل كبير علي، أرجو ان تبلغه، حين تكتب اليه، تحيات تلميذه زكي المحاسني، واتمنى أن تضحى مثله في العلم والخلق والوطنية.

وشعرت بزهو يملا عطفى، فقد كان أخي وحيد رحمه الله، أحب الناس الي. كان مثلي الأعلى بين الرجال، وخلص اليّ، آنذاك، شعور صادق بأن معلمى المحاسني، انسان وفي، يذكر معلميه، منوها بأياديهم وفضلهم عليه، وما يزال هذا الشعور الحلو يناسم خاطرى.

وكان فمه وعيناه، تتجاذب ابتسامةً طليّةً، مرحةً، لا تألو معانيها تتوالت من الشفتين الى الجفنين، فيبدو، إمّا حذر نظرةً ناعمةً، مستظرفةً الى طلابه، كأنما يتسم لهم بانسان عينيه.

وتظل هذه الابتسامة لصيقة بشفتيه، ليرأى وجهه، فى أغلب الأحيان، مستبشراً، حتى إذا الت به، أحياناً، سحابة مكدره، ليقطب ويزوى ما بين حاجبيه، لم تستطع ان تتحيف من البشر المعهود المتفرق فى محياه، اذ سرعان ما يفرغ الابتسام الى فمه، وتنجاب السحابة الجهمه، ويتهلل وجهه سعادة ورضاء.

وكان يخيل الى أن قلبه الذى يحمله بين جنبيه، قلب طفل برىء طاهر، فهو كالطفل يفرح بالكلمة المطربة الحلوة المنصفة، وهو كالطفل، لا يعرف الخداع أو المكر، وأنه ليمحض أصحابه عاطفة مخلصه نقيه، فى بساطة محببة، لا رياء فيها ولا زيف.

وكان درسه فى الادب متعة خالصة لا تنفذ لطلابيه، وكان يمنح مما قرأ وطالع وحفظ، أجوده وأحلاه، يتنخله لنا ليسطه، بين الحين والحين، معلقاً شارحاً، وأذكر أن المنتبى كان أكثر الشعراء حظاً بما ادخرته حافظه معلمنا ووعته من شعر أبى الطيب، فكان دائم التمثل بمختارات من أبياته الذائعة السائرة المشهورة، يملئها علينا ويحملنا على حفظها والاستشهاد بها.

أذكر، الآن صوتة الندى، وهو ينشد الشعر، كيف كان يبدأ خفيضاً، ثم يعلو مترنماً، هازجاً وعيناه الحالمتان تواكبان الصوت

المرنان، كأنما تهبان له ألقاً واشراقاً، حتى اذا استوفت القصيدة نصيبها من التلاوة، تخافت الصوت الصافي، شيئاً، فشيئاً، واستقرت في الاسماع نشوة مستمتعة، مسحورة تتمنى المزيد.

وكان رحمه الله، أول من شجعتني وأخذ بيدي الى مناهل الأدب الصحيح، ودلني على ينباع الشهية السخية من أدبنا القديم والحديث، وكان يردد لى كلمة لا تنى تغازل سمعى:

- سوف تضحى، يا بديع، ذات يوم كاتباً.

كانت هذه الكلمة تفعم نفسى اعتزازاً وهناءة. ولم أكن أقتصر، على وظائف الانشاء التى كان يطلب الى تلاميذه كتابتها، فقد كنت أعرض عليه ما أقرض من شعر أو ما أكتب من قصص، فلا يظن على بالنصح ويتيح لى من فضله وارشاده ما أنا له ذاكر طوال العمر.

أذكر، الآن حادثاً، ما يزال حتى الآن ماثلاً فى خاطرى. كان امتحان آخر العام يوشك أن يهل، حين أصبت بحمى البرداء (الملاريا) وقد اعتزمت، مع هذا، أن أجوز الامتحان، لئلا أخسر إن تخلفت عنه بسبب المرض، عاماً من حياتى الدراسية، ومضيت الى المدرسة مريضاً، والحمى تستبد بجسمى المرتجف الواهن، ولم أكد أدخل قاعة الامتحان حتى ألمت بى البرداء، وكان أستاذى المحاسنى قريباً من المنصة، فخف الى وأمسك بساعدى، متألماً، بادى الاسف، وأجلسنى على مقعدى، وجعل يروح ويجمى، يجس بيده الحنون جبينى المضرم، وأذكر أن سؤال الانشاء فى الامتحان كان آنذاك:

(قال نابليون: ان كلمة مستحيل، غير موجودة فى قاموسى . ماذا توحى لك هذه الكلمة الطموح؟)

وأمام لدائى العاكفين على أوراقهم يملأون بياضها بأقلامهم الغضة المتوثبة قال لى معلمى المحاسنى بصوته الجمهورى:

- بديع، كنت الأول فى الصف، وستبقى دوماً، لا أطلب منك سوى سطرين، سطرين فحسب وستبقى علامتك هى هى، لا تتغير ١٨ على ٢٠.

وكان الحمى المتلظية والنشوة التياهة بالكلمة المشجعة قد اثلتنا لأكتب صفحتين، واستاذى المحب المشفق، يدور حول مقعدى وأمارات القلق فى وجهه السمح، ثم يمد راحته الى جيبنى المنتضح بعرق الحمى، ونظرته الرقيقة تنثال حناناً، ثم يحملنى بصوت عذب على الاجتزاء بما كتبت.

لا، لا، لا أنسى، ما عشت، هذه النظرة الطيبة، انها هى هى نفسها التى حبت، فيما بعد على ورقة الامتحان، تناسب فيها كلماتى الهادئة المتقدمة المواكبة لنبضات الحمى العاتية.

لا أذكر، الآن، ما كتبت، فلم يبق فى ذهنى المتأجج سوى ذلك السؤال فلعل ما سطرته أن يكون أجود ما أملته الحمى القاسية الحامية، ومن يدرى ولعله كان هذياناً أوحى به حرارة المرض...

ولكننى أذكر أن العلامة التى نلتها لم تكن ١٨ على ٢٠ بل

٢٠ على ٢٠. وهى علامة ما كنت لأطمح الى الظفر بها لو لم  
أكن مريضاً بالحمى ولو لم يكن معلمى المحاسنى ذا القلب الكبير  
النبيل.

وقد ظل رحمه الله يذكرنى بهذه الحادثة، فيما بعد، مماًزحاً،  
معاثماً، مردداً:

– أسعفك الحظ فمرضت، لتنال العلامة التامة، ولكن، لا تنس  
، أن تسجلها فى مذكراتك، ان شئت أن تكتب عن معلمك  
القديم....

وان الدمع ليغيم فى عيني، الآن، وأنا اعزل خيوط هذه الذكرى  
وأحيائها من جديد، لأتمثل استاذى، يمد راحته الحنون الى جيبى  
المتقد الندى، ونظرته الرفيقة، تتطامن، رياً بالاشفاق والمحبة والحنان.

وتمضى الايام، ويصدر أستاذى المحاسنى أول كتبه: النواسى  
شاهر من همقر، وهو من أحسن الدراسات التى كتبت عن أبى  
نواس. ففيها فهم عميق واستجلاء لعبقرية الشاعر، وفيها يتجلى  
منهج حديث مبتكر فى البحث والدراسة. وكان على التلميذ المحب  
أن يكتب مقالا ضافياً، فى احدى المجلات الدمشقية منوهاً بهذا  
الكتاب القيم، محللاً، ناقداً، منصفاً.

أذكر الآن بسمته التى برعمت على شفثيه، حين التقى بى  
ليجلو شكره للكاتب الناشئ وفخره به، ويقول لى: ألم أقل لك أنك  
سوف تضحى كاتباً.

ونكر الاعوام وأشهد، ذات مرة، حفلاً، ألقى فيه استاذى المحاسنى قصيدة رائعة مؤثرة عن امه وحمها الله، وكان رحمه الله باراً بها حفيماً بذكرها. فلم يكذب ينتهى من القائها حتى هنأته مصافحاً، ثم مضينا معاً، وكان بيده برعم ورد، فأعطانيه وجعل يتحدث لى عن امه بصوت راعش تخنقه العبرة. أجل انه مثلى مات أبوه ولم يكن يتجاوز خمس سنوات، فتعهدته أمه - كما تعهدتنى أمى - بالرعاية والمحبة.

وكان على، أن أحتفظ ببرعم الورد، فى دفتر صغير يضم سوانح خواطرى، ليخلد بين صفحتين منه، الى اغفاءة، طويلة، طويلة، مدى ثلاثين عاماً.

ولكن صلوات الود بينى وبينه لم تنقطع قط، قمت بزيارته فى القاهرة - وكنت فى طريقى الى باريس - وكان يهيمى آنذاك شهادة الدكتوراه فى الأدب العربى، وأذكر أنه قال لى: هأنذا عدت طالباً مثلك، أحسب أننا سنظل طلاب علم عمرنا كله.

وكانت مؤلفاتى - على قلتها - تتخذ سبيلها اليه، جدولاً صغيراً ينكفىء الى النهر الزاخر الذى فصل منه، فلعل الكثير مما جرى به قلمى قد صقله وهذبه ورعاه أستاذى المحاسنى، وأنه ليعود اليه ليظفر منه بالتشجيع الصادق.

وكانت مؤلفات أستاذى تتخذ سمتها الى، ومنها ما تنهى الى، فى غربتى القصية - مع إهداء لطيف يجمله على مألوف عاداته

بأبيات من شعره - وكذلك تلقيت في الجزائر، مؤلفه عن أستاذه  
عبد الوهاب عزام رحمه الله، ليؤكد لى معنى وفاء الطالب المحاسنى  
لأستاذه الراحل.

وعدته فى مرضه الذى أسلمه الى الموت، - ورأيت وجهه  
الشاحب الهضم - أين ذلك الشباب الزاخر الفياض الذى كان  
يملاً عطفه قوة واندفاعاً وحماساً؟ ولكن الابتسامة المستبشرة،  
الابتسامة الطفلة، تظل هى هى، بريفة نقية متصلة بشفتيه، تتوثب  
معانيها الى عينيه لتبدوا للناظر بتسمان له بنور داخلى.

وكانت زوجته الكريمة، الادبية الكبيرة السيدة وداد سكاكينى،  
الى جانبه، تتمعه بحنانها وعنايتها واخلاصها، واذا الحديث بيننا،  
يتشقق فنوناً ويتفطر ألواناً من الادب الشهى، طوال ساعتين.

وأرى اليه يسعى، متحاملا على نفسه فى خطأ وثيدة متمهلة،  
الى غرفة مجاورة ليعود الى بعد قليل، بنسخة من مؤلفه الأول  
(النواسى شاعر من عبقر) فى طبعته الجديدة، ويتسلسل اهداؤه الى  
بهذه الابيات:

بديع حقى له فى الفن ابداع  
وهمس أقلامه فى الدهر أسمع  
الشاعر النائر الراوى وزاد بها  
سياسة، فللكل عنده باع  
وضعت، فى صرحه يوم الصبا لبناً  
فراح فى عبقر، يعليه اجماع

بلى، وان اللبن التي وضعها فى صرح صبأى، لقائمة استند إليها واعتمد عليها، فى طريقى الممتدة أمامى، منذ عقوة صبأى حتى الآن.

وأغادر استاذى، وأنا لا أعلم اننى لن أراه بعد الآن، وان الله سوف يختاره الى جواره بعد أيام، وان كلماته الحلوة المشجعة سوف تنطفئ فى مسمى، ولكن معانيها تظل موصولة بحنايا قلبى، لا، لا، لا لن أجتمع اليه، الا فى مستقر رحمة الله.

الطريق الى المقبرة الجائمة فى سفح جبل المهاجرين، صاعدة ملتوية. ههنا يرقد أستاذى المحاسنى فى قبر واحد مع أمه المرحومة سارة التى كان يحدثنى عنها، داعم العين، راعش الصوت، تضم بين ذراعيها الرفيقتين ابناها الطفل الحبيب البار.

وتنتصب شاهدة القبر، وتستشرف دمشق المدينة الخالدة التى أحبها وأحبته مطلة عليها، جبهة أبية، باذخة من رخام.

وأقرأ الفاتحة على روح أستاذى، والى جانبي ابنه العزيز ذكوان، وفى عيني يعربد الدمع وتمتد راحتي الى محافظتى لأستل منها برعم ورد جفت أفوافه وذوت، برعم الورد الذى منحنيه معلمى منذ ثلاثين عاما ثم خلد الى اغفاء طويلة قريرة فى دفترى الصغير، أمدا طويلا، ولكن أريج الذكريات ما يزال عابقاً فاغما فيه.

وانسأقت نظرتى الغائمة المبتلة، الى قبره تتوزع الزهور اليانعة على جنباته، ومثل فى خاطرى أن راحة معلمى تعطو الى الزهر

الفواح، لتقطف منه زهرة ناضرة وتهبها لى - كما وهبت لى  
برعم ورد منذ ثلاثين عاما - ثم تمتد الى جيبنى، فى لمسة رقيقة  
حادبة.

وبدا لى، فى منسرح الوهم، اننى عدت ذاك الفتى الذى يجوز  
الامتحان، وحمى البرداء تهز جسمه هزا، وأن راحة معلمى الحبيب  
تنحو الى جيبنى المنتضح بعرق الحمى، لتجسه وتحمل الى هناءة  
وطمائينة سابغة.

أجل، هاهى ذى نظرتى الممتنة تشخص الى عل، لتلقى من  
وراء الغيب، بنظرتة المشفقة الشفافة المنحدرة من عينيه الباسمتين،  
وأنعم - كما نعمت فى فجر صباى - بشهد المحبة ودفء الحنان.

\*\*\*

## غاب المحاسنى ليبقى شعرا وذكرى

للدكتور عبد السلام العجيلى  
أديب القصة والرحلات  
مجلس النواب - سورية

لم تجمعنا صداقة حميمة ولا علاقة معلم بتلميذه. كان ١٣٣ أفقى من أن يكون من اساتذتى واسن من أن اكون من لداته. ومع ذلك كنت أحس بقربه من القلب كأعز الاصدقاء، لأن نفسه كانت فى براءة الاطفال وای انسان يقدر على أن لا يكون صديقا لطفل وان كان ذلك الطفل كبيرا؟ وكنت كذلك اراه خليقا بان يكون واحدا من اساتذتى، وان لم اجلس امامه على مقاعد الدرس. اليس هو من الطبقة التى انفتحت على العالم المعاصر، عالم الغرب بأدابه الثرية وحياته المغرية، ومع ذلك لم تأسرها مفاتن ذلك العالم بل ظلت وثيقة الصلات بماضيها شديدة الاعتزاز بقوميتها مخلصه لادبها القديم والحديث ولتاريخها المجيد؟

قلت بأن زكى المحاسنى كان فى دراءة الاطفال. ملامح وجهه تعطيك هذا الانطباع عنه من اول نظرة تقع عينك فيها عليه. على أن وجهه المورد وتقاطيعه السمحة وابتسامته الصافية ما كانت غير عنوان مقتضب لما كانت تفصله سريره الطيبة وما كان يشرحه نقاء نفسه. حتى حين تقدمت به السن، وما تقدمت به فى الحقيقة كثيرا، ظل هذا الانطباع عنه فى نفسى ثابتا. ظلمت أرى فيه العفوية غالبية وأرى كم هى كبيرة قابليته للاندھاش مما يطلع عليه فى هذه الحياة. وليس اكثر من هذا دلالة على ثوب طارئ، كانت تسترعى انتباهى منه هذه الدهشة الطفولية مما يسمع ويرى من التصرفات السيئة للناس، وأخبار المسيئين الى الاخرين واليه، ما كانت تؤله بقدر ما كانت تفتح لنفسه ابواب التعجب والاستغراب إذ كان بعيدا عن الحقد وعن مرارة النقمة وعن السوداوية، وأين لذلك الطفل ان يحمل فى قلبه غير الطيبة وان ينظر الى من حوله بغير عين البراءة والصفاء؟

كانت براءة الطفل فى نفس زكى المحاسنى ولم يكن فيها عبثه. وما كان ابعد زكى المحاسنى عن العبث فى حياته وفى عمله، يشهد بذلك تلامذته فى مختلف المدارس وفى المعاهد العالية وفى جامعات الوطن العربى التى حظيت به مدرسا وباحثا. كما تشهد بذلك دراساته العلمية ومؤلفاته الكثيرة. وما كانت اهتماماته الادبية غير اهتمامات الباحث الجاد الرصين والعميق. أما علاقته الانسانية فكانت علاقات الاخ العطوف والاب المستقيم الطريقة، من غير تشدد أو قسوة. وقد رأيت فى لمحات من علاقته هذه واعماله تلك فى

منصبه الثقافي في السفارة السورية في القاهرة، قبل الوحدة بسنوات، حين مررت بتلك السفارة زائراً، وفي عمله مديراً للتراث في وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق حين مررت بتلك الوزارة وزيراً. هذا غير ما رأيت منها في أبحاثه الادبية ومؤلفاته النقدية وفي شعره.

وهل يصح ذكر زكي المحامسي من غير أن يذكر شعره؟ يقول ابو العلاء في احدى رسائله ان ابا عباد، يعني البحرى، ما كان يقوى على كتابة رقعة فكان يجعل المنظوم عوضاً عن المنشور. ولو ان قارئاً ادبياً لم تتصل به مؤلفات فقيدنا الثرية ودراساته الادبية واقتصرت قراءاته على ما نشرته المجلات للدكتور زكي المحامسي في اعوامه الاخيرة، لظن ان فقيدنا قد خلف البحرى في هذه الخلة. كانت مراسلاته الاخوانية<sup>(١)</sup> وتعليقاته الادبية في الصحف وفي المكاتيب

(١) من هذه الاخوانيات مدار بيني وبين الفقيد حول كتابه «أبو نواس: شاعر من عبقرية». فقد اهدى الى رحمة الله كتابه ذلك عن ابي نواس، الحسن بن هانئ، بأبيات شعرية هي الاتية:

- عبدُ السلام العجيلي .: قولُ ابي من قيلِ  
بحرٍ يجيُّ بشعر .: وقصة ذات سيل  
والطبُّ يَغنَى لديه .: وما به من ويل  
فليت انى مريض .: يشفى هواي بنيلي  
دواهُ. وهـو جوادُ .: على النهار وليل  
اليك منى النواسي .: بخمرة دون غيل  
قد عتقت في دنان .: وحدثتك بميل  
في جلسة عاش فيها .: دهقانها فوق خيل =

الخاصة كلها شعرا، وشعرا بحتريا فى رشاقة اللفظ وجمال الصور وموسيقية الجرس، حتى لكأنه كان يستسهل النظم أكثر من نثر الكلام. وما أتاه ذلك الا من فيض القريحة وغنى اللغة ويسر انطلاق الكلام الموزون المقفى على لسانه، وهى خصائص لازمت كل شعره. وقد حملت مجلة الاديب البيروتية بصورة خاصة كثيرا من عطائه الشعرى فى اخوانياته وقد اشترك معه فى النظم اصداقاه، وكان فى أغلبها هو البادئ فى اثارها وفى دفع اخوانه الى مجاراته. ولو تتبععت هذه الاخوانيات وسجلت لتألف منها كتاب طريف فى موضوعه، قيم فى فائدته.

وبعد فان كثيرين غيرى، ممن جمعتهم بفقيدنا الدكتور زكى المحاسنى رحمه الله علاقة العمل المشترك أو وشائج الصحبة = فاسكرت مثل فن .: تصوغه يا عجلى

٨ ايار ١٩٧٠

وقد اجبته على تلك الايات بأبياتى التالية:

- |                                  |                                 |
|----------------------------------|---------------------------------|
| اناى ابن هانى قد تناهى محاسنا .: | بما دبحت يمنى زكى المحاسنى      |
| اعدت بهذا السفر للناس ذكره .:    | وأبتهته من بعد طول التهاون      |
| وقمت له بالعدر عن كل ما حسا .:   | وما عبّ فى دنيا الطلاب والشوادن |
| رأيت عطاء العبقريّة شافعا .:     | بنزغات عرييد وفتكات ماجن        |
| فمن لى باحسان «الزكى» وحلمه .:   | اذا نصب الميزان يوم التغابن     |
| لعل كلاما طيبا كنت قلتة .:       | يكفر عن عاب آتيت وشائين         |
| شكرت قريضا صفتة بمهلل .:         | يكفر عن عاب آتيت وشائين         |
| واين من التيار قطر سحابة .:      | وكيف يفى شكرى بفضل المحاسنى     |

والصدّاقة، قادرين عل ان يتحدّثوا عنه حديثا يفى باحسانه ويجلّى  
عن مآثره أكثر مما استطيع فعله أنا فى هذه الكلمات القليلة. ما  
أردت قوله فى هذه الكلمات هو أن أحملها شعورى أمام فقد  
المحاسنى رجل الادب شاعرا وباحثا، الفائض النفس باحاسيس الحب  
والطيبة، الذى وهب من علمه وادبه هبة الكريم غير منتظر ثواب من  
اعطى على ما أعطى. كما أردت أن أقرن شعورى ذاك بشعور  
التقدير والتحية لرفيقة حياته السيدة وداد سكاكينى المحاسنى، وأنا واثق  
بان الم فقد الجسم وافتراقها فى هذه الدنيا الفانية لا ينسيها أن  
شريك - حياتها قرين لها حى بأدبه وشعره، وبما خلفه فى نفوس  
اصدقائه وتلاميذه وقرائه من ذكرى متوقدة بشعلة الحياة ونبيلة  
بصدقها ومحتواها.

\*\*\*

٧

## الدكتور المحاسنى هذا الوجدان المشبوب

للاستاذ أنور الجندى - مصر -  
أديب السيرة والأعلام ومؤلف  
الموسوعة الكبرى فى أدبنا المعاصر

نحن بإزاء رجل مشبوب العاطفة، صادق الوجدان، يعيش على مشاعره واشواقه الروحية، فهو شاعر بكل معنى الكلمة حتى ولو كتب الشر أو الف فى الدراسات العقلية، تلك طبيعته الغالبة التى تفوق كل معطياته الانسانية، يلقاك فيحتفى بك وتحس من حركات يديه والفاظه وإشراق وجهه ومنطق الفاظه بل وكل حركات جسمه بذلك الشوق والوفاء، وذلك الطابع العميق من الحنان والحب، وهو بهذا الوجدان المشبوب يعالج امور الحياة ويواجه كل تضاريف الاقدار، فاذا كتب فانه ينحو منحى شعراء العاطفة وأدباء الوجدان، واذا تكلم أحسست بذلك التدفق المندفق السمع، واذا تصرف ملاً الدنيا حياة

حياة وحركة وضجيجاً، وعلى هذا النحو كان يصدر في كل أموره، وبالرغم من أنه كتب (نثراً) ونقد كتباً وكتب في الاسلاميات وفي الاجتماعيات والاخوانيات فقد ظل ذلك الشاعر المشبوب العاطفة العميق الوجدان.

تلك هي الصورة التي بقيت مطبوعة في نفسى منذ لقيت الدكتور زكى المحاسنى اول مرة، وحتى اخر لقاء لنا معه فى القاهرة وكان يزورها ليلقى محاضراته عن الدكتور عبد الوهاب عزام فى معهد الدراسات العربية والبحوث، بعد ان القى محاضرات من قبل فى نفس المعهد عن احمد امين.

وقد ارتبط الدكتور المحاسنى بطوابع تفكيره وحياته. واتسق معها اتساقاً تاماً، فهو يحب الادب الفرنسى ويستشهد برواياته ونوابغه، وهو معجب بالادب الفرنسى لانه ادب الوجدان والعاطفة المشبوبة، ثم هو شاعر له ملحمة وقصائد تجعله فى طليعة نوابغ الشعراء وقدوجه سنواته الاخيرة لانشاء «الياذة» عربية اسلامية فبلغ فى ذلك مبلغاً عالياً وقدم حلقات متعددة فى تاريخنا على نحو مشبوب بالعاطفة والايمان والحماسة للعرب الذين قادوا المعارك وكان القرآن فى ايمانهم ورسالتهم وهو حين يكتب يتحدث عن شعر الحرب لانه متصل بالوجدان المشبوب فاذا هو يدرس صيال السيوف وصهيل الخيول فى العصرين الاموى والعباسى ويقف عند سيف الدولة الذى خلق شعره أبو الطيب المتنبى. ثم هو معنى أيضاً بهذه البطولات: بطولة المتنبى فى

شعر الحروب وبطولة ابي العلاء فى نقد المجتمع وهو معنى بهذا الطابع، وهذا اللون حتى فى مجال تحقيق التراث، حيث تجده يختار ديوان الشريف العقيلي الشاعر المشبوب العاطفة الصادق الوجدان.

وفى ادب العصر الحديث تجده معجبا بالادباء الذين يغلب عليهم طابع العاطفة والوجدان فيحب زكى مبارك والعقاد وأمين نخلة والشيبى والشايبى.

وهو لا يبخل على من يصدقه الود فيه شعره ونثره محيا مكرما، وكذلك تجرى عاطفته الدينية ايمانا وحبا ووفاءً للارض المقدسة والبيت الحرام والكعبة ومن حولها من الكرام الذين اشادوا بأدبه واحسنوا وفادته.

وفى السنوات الاخيرة من حياة الدكتور المحاسنى ملأ المجلات العربية بابحائه فكنت حيث تقلب صحف المغرب او المملكة السعودية أو مصر أو غيرها تجد قصائده وكتاباته وقد عنى بتسجيل كثير من ذكرياته ولقائه مع الاصدقاء والاعلام.

واسلوبه فى كتاباته هو اسلوب الخطباء فقد بدا حياته محاميا وقد دافع عن حقوق الناس أمام القضاء ثم دافع عن حقوق العرب على منابر الادب والصحف.

وكان له المام وافر واهتمام كبير بدراسات اللغة العربية ومقارنتها باللغة الفرنسية مما أهله لأن يكون عضوا فى مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع الملكى الادبى الاسبانى.

وكان المحاسنى يحب مصر حبا يفوق كل حد، وكان شوقه الى النيل يدفعه دائما صوب القاهرة فقضى اغلب ايام عمله بها، وله فيها شعر واحاديث، وكان من اوفى الاوفياء لاهل مصر وادبائها وكل من يعقد صداقة معه فكانما يعقد صداقة مع الشام كله.

وكذلك كانت كتاباته فى نقد الأدب ومراجعة المؤلفات، كانت دائما تغلب عليه الحقيقة والصداقة، ولقد كانت مجلة الأديب منذ ظهورها مسرحاً لانتاج المحاسنى وكتاباته حتى لا يكاد يغيب عن عدد منها الا قليلا.

ولقد كان المحاسنى منذ مطالع حياته الادبية نابغة فى جمعه بين دراسة الحقوق والآداب، وجمعه بين الدراسة فى جامعة دمشق وجامعة القاهرة.

وكانت أطروحته فى جامعة القاهرة موضع خصومة بين المعسكرات المتخالفة فأحرزها بتفوق وانتزعها بقوة دراسته وحجته.

وهكذا عاش المحاسنى الذى ولد ١٩٠٩ والذى توفاه الله ١٩٧٢ حياة عريضة مليئة بالحيوية والحركة بين الجامعات المختلفة والصحف المختلفة والدراسات المختلفة لم يتوقف لحظة عن العمل والنظر فى انتاج الاجيال. وكان عمله الاصيل هو تدريس أدب اللغة العربية فى دمشق والقاهرة وبيروت.

وكانت العقلية الأدبية وداد سكاكينى وهى من الرائدات المعدودات فى أدب المرأة العربية الحديثة خير معين لهذا القلب

الفياض بالخير والبذل، وهو خير عماد ثابت وطيد لهذه النفس الطموح المتدافعة فى تدفق غريب .

ولقد قدم المحاسنى تراثاً ثرا وانتاجاً ضخماً، سيظل موضع دراسة الاجيال وترك فى نفوس عارفيه صورة مثلى للحنان والوفاء والحب والاخاء فبكنه العيون حين فارق على عجل، وحين ذهب فى وقت كان يظن معه أن العمر لايزال له بقية.

وتلك حكمة الله العالیه التى نتقبلها بالرضى فلكل مهمته التى اذا انتهت مضى، واذا تمت ذهب الى وديعة الله .

ولعل الباحث النفسى يستطيع أن يجد فى خلفيات حياة المحاسنى تفسيراً لطابعه الوجدانى الدافق، ذلك هو وفاة والده وهو فى سن صغيرة فعاش حياته يشعر بذلك اليتيم قائلاً توفى والدى وعمرى ستان ولم يترك لى صورة أراه فيها فعاش حياته يشعر بذلك اليتيم الأليم وقال :

ولم يترك لى صورة أراه فيها فألمنى فقد خياله وان كان باهتا فى وجهه الحبيب وعشت يتيما ترعانى أمى الحنون ويحذب على أخو والدى فكان يرد فى رعايته ما كان صنعه له وهو صغير» .

«ثم ماتت امى قبل ان تذوق من كسبى ما ينسبها مرارة الليالى التى سهرتها من اجلى فعشت بعدها باكيا عليها فى شعرى وكانت حنوناً رؤوما ولن أستطيع أن أنساها حتى اموت، وانى لاحيا كل يوم ناظرا الى محياها الباسم من وراء الغيوب» .

تلك هي صورة النفس الحساسة الشفافة الشعور في مواجهة الحياة، ولم يكن الدكتور المحاسنى غافلا عن حكمة الله في هذا الامر، ولكنه كان على طبيعته يجرى وراء الوجدان المشبوب، والعاطفة المتدفقة ولو انه نظر في التاريخ لوجد أن اعظم الرجال كانوا كذلك وان اليتيم يبنى الرجال ولعله كان أكبر عامل من عوامل شخصيته القوية المتدفقة التي كانت تشمل أحبابها وأصدقاءها بذلك الحنان الدافق، وترى صورة هذا الحنان في كل كلمة وفي كل شطرة شعر، وفي كل سطر، وفي تلك الابتسامة الحلوة التي كنا نراها على ثغرة في الحياة وما زلنا نراها من وراء الغيب.

رحمة الله على الدكتور المحاسنى ومغفرة ورضوانا.

\*\*\*

# زكى المحاسنى أو اخاء ربع قرن

للاديب الكبير الاستاذ وديع  
فلسطين - مصر  
الصدىق الصدوق لأدباء العالم العربى

إن فقدت الضاد بوفاة زكى المحاسنى علماً من أعلامها وإن خسرت فيه المنابر قطباً من اقدر المرئجلين من خطبائها وإن تفقدته الجامعات أستاذا ومحاضرا من المدودين، وإن تجهم الشعر لغيابه، وإن غاب وجهه الصبوح عن مجامع اللغة والأدب عضوا فيها، فخسارتى فى المحاسنى خسارة عمر فى الاخاء والوفاء.

عرفت المحاسنى أول ما عرفته يوم كان يتهاى للظفر بأعلى الدرجات العلمية الجامعية من مصر، وكانت يومذاك فى صحبته رفيقة عمره ونجىة قلبه زوجته وداد سكاكينى الذائعة الصيت فى عالم الأدب - تغشى معه منتديات القاهرة المزدهرة، وحفول الأدب

والفكر فيها وقواعدها منصوبة على مدار العام، فان توجهت الى نقابة الصحفيين للاصغاء الى محاضرة لابراهيم عبد القادر المازنى أو محمود عزمى ألفيت هناك المحاسنى وزوجته، وان سارعت الى محاضرة للدكتور هيكل باشا فى نادى الخريجين من جامعات أوربة كان زكى ووداد فى مقدمة الحاضرين، وان مضيت الى جامعة القاهرة للاستماع الى محاضرات مصطفى عبد الرزاق أو أحمد أمين أو أحمد الشايب أو الدكتور محمد كامل حسين فالمحاسنى وقرينته أول الحاضرين وآخر المنصرفين إذ كانا يلتقيان بنخبة الجامعيين والأدباء المفكرين، وان جئت المجمع العلمى للثقافة المصرية فى موسم للمحاضرات العلمية لقيت هناك المحاسنى ووداداً مستمعين، ولا أكاد أذكر منتدى من منتديات القاهرة التى كانت فى ذلك الحين وقبل الخمسين تموج بنهضة الفكر والأدب وحيوية الثقافة والجدل والمناظرة بين أعلام المحاضرين من المصريين والمستشرقين إلا ذكرت بين الحاضرين هذين القطبين اللذين ما كانت تفوتهما سانحة من سوانح الحياة الفكرية الخصبة المتجددة ولاهما يفترقان حتى فى نادى سيدات القاهرة وحتى فى جمعيات الشبيبة الاسلامية، والمسيحية على حد سواء.

وما أحسب عربياً من غير مصر مقيماً أو عابراً أو متردداً، وقف على دقائق الحياة الأدبية والاجتماعية فى مصر كما وقف عليها هذان الزوجان. وكان طبيعياً أن يجرى بيننا التعارف والتلاقى فى هذه المجتمعات، فكلنا طلاب علم وأكثرنا عشاق أدب وفن ولغة،

وكلنا كنا نتنشق عبير الحرية الفكرية فى عصر هو بحق أزهى عصور النهضة الثقافية فى بلاد العرب، وكنا نواقين للالتقاء بأكبر القيم الفكرية فى اجواء قلّ نظيرها وعياً وتطوراً وانفتاحاً على الشرق والغرب، ومسايرة لتيارات العلم والمعرفة والحضارة فى أمصار الدنيا.

ولقد كان المحاسنى الأديب ومعلم الأدب حفيأً بى، ففتح لى صدره وقلبه، وإذا نحن أخوان صفيان وصديقان صادقان وإذا بيت كل منا مفتوح للآخر نتلقى على فكرة أو مائدة أو زيارة مختارة ما بين مصر الجديدة والجيزة أو «الروضة» حيث أثر السكنى.

أما دار «المقتطف» شيخة المجالات التى كنت أعمل فيها يومذاك فكانت قبلة العلماء والأدباء من ديار الضاد ولا سيما فى ندوة الجمعة حيث تتلقى الأفكار والآراء على اختلاف مذاهبها ووسائل التعبير عنها وكان المحاسنى وزوجه زينة تلك الندوة بما أوتى كل منهما من أدب ولباقة وإخلاص عرفا بهذه المزايا واستفاض لهما ذكر بين ذوى الأقلام فى مصر وبين أعلام الضاد من مختلف الأقطار والأمصار، وكان المحاسنى يمازحنى بقوله: لا تدع شيخوخة «المقتطف» تعدو على شبابك! وإن كانت هذه المجلة الجليلة مشت فى خطاها مع الزمان فى تطور الفكر والثقافة العلمية التى حققتها فى موضوعاتها ورسالتها.

ولئن عرف المحاسنى وزوجه كيف «يكتشفان» حياة الفكر والأدب والفن فيما صورت القاهرة فى ندواتها ومحاضراتها من هذه

الحياة التي ضجت بجدل النقاد ومقالات الكتاب والصحافيين الكبار وكان أكثرهم من الأدباء، وهل فانت المحاسنى ورفيقة ادبه وحياته محاضرة للدكتور طه حسين فى الجامعة الامريكىة أو الجامعة المصرىة أو من الاذاعة، وكان الزوجان الأديبان يشاركان فى الحديث والحوار من اذاعة القاهرة مع كبار النقاد والمحدثين، وجلساتهما الاسبوعىة مع صديقهما المفكر الكبير نقولا حداد وزوجته روز أنطوان شقىة فرح أنطوان فى النادى الشرقى ما كانت تتوقف وبخاصة فى آخر أيام الاستاذ نقولا حداد اللبناى المتمصر وغيره من كبار المؤلفين والمحققين على ضفاف النيل.

وإذ كنت الصديق الموصول المودة بكثير من رواد الأدب الحديث والصحافة الأدبىة وبعض الشعراء الكبار، فقد دعوت الرفيقين الاديبن الى لقاء الشاعر الخالد الذكر خليل مطران، فكنا نجتمع به فى «النادى الشرقى» أو مع شيوخ المتمصرين من اللبنايين والسوريين الذين أقاموا فى مصر منذ زمن بعيد، وفيهم أدباء وصحافيون كانوا متمرسين بفنونهم وخصائصهم ويضيق المقال بتعداد الاسماء والوجوه التى عرفها المحاسنى وزوجته بمصر منها علماء فى اللغة والفقه والقانون، ومنها لمجمعين مشهورين ومن قبل عرفاهم فى المقالات والمؤلفات فلما تعدد اللقاء كان منهم الود والإخاء.

على أنى بقيت أقرب الأصدقاء للمحاسنى فادركت فيما عرفت عنه وخبرت أنه منهموم أشد النهم فى طلب العلم بالكتب قديمها وحديثها، وطلب الخبرة والاسوة فى مخالطة أكابر العقول عربىة

وأجنبية وأشهد أنه كان فى الأمرين قليل الارتواء، فالكتب عنده ولود وكل كتاب إنما يسلمه الى عشرات غيره من الكتب الموصولة السبب بنهم فى المطالعة والاستقصاء، أما الاتصال بالفحول وبالحياء التى لابسوها وعاشوا فيها فقد حقق له صداقة قوية وثقة عالية ومن فضل الله ان كنت له الرفيق الأمين والدليل الذى يرشده الى ما يجهل من أحياء القاهرة، وقد أقام فيها للدكتوراه ثم لمسؤوليات ثقافية فى السفارة السورية أكثر من عشر سنوات متقطعة.

ولما غادرنا المحاسنى للمرة الاولى عام ١٩٤٨ أحسست فى حياتى اليومية بفراغ كبير لا سيما وان اندية القاهرة التى كانت تعج بنشاط الفكر والثقافة والسياسة سرعان ما همدت بعد الرحيل وطوى الموت أو الانزواء وخمول الذكر اعلاما كانت رفاقة وانصرفنا الى ما كنا بسبيله من كدح للعيشة ووفاء لبعض الصحف الصديقة التى كنا ننشر فيها سطورا أدبية بالجنان ولم ينقطع عنا بريد المحاسنى كما ان زيارته للقاهرة لم تنقطع فكان يأتينا على شوق فى اللقاء لالقاء محاضرات أو شهود مؤتمرات أو لعودة المهمات الثقافية التى كان يقوم بها، أو لمتابعة دراسة الانجال فى جامعة القاهرة ولا يكاد يهبط مصر التى أحبها وأحبته حتى يكون بيننا لقاء صديقين بل عناق قلبين ومناجاة صفيين، نلتقى على ضفاف النيل أو فى الضاحية أو عند سفح الهرم، ووقتى مبذول له فهو الصديق الصادق والخل الباذل الود بل كان سميرى ومجيرى وحامل همومى فلا يخاطبنى إلا «بالاخ المفدى».

ولقد مررت فى الحياة بتجارب وخطوب رأيت فيها اسوداد الافق  
وانتحار الامل، فكان المحاسنى على البعد والقرب، صدرا حنوناً ويذا  
مؤازرة، وقلباً الى المكرمات سباقاً.

ماتت أمى، فوجه المحاسنى الى قصيدة فى هذه المناسبة الحزينة  
هى من أرق الشعر واصدقه قال فيها مناجياً أمه:

أيا أم، ما يومى لديك المودع  
ففى كل يوم من لقاءك مرجع  
مضى الدهر كالأمس الذى كان عندنا  
وعيناي ما فاتتهما فيك أدمع  
وللحزن زهر والمدامع ماؤه  
وهذى أزهيرى بروضك تطلع  
أهاجرتى فى الحلم، قد كنت قانعا  
بلمحك خلف الجفن أرنو واسمع  
أنام لألقى وجهك الحلو فى الكرى  
فاحسب شملى بعد نأيك يجمع  
فما بال أعوام تمر ولا أرى  
خيالك مهما رمته حين أهجع  
على مضجى تصويرة لك علق  
وفى القلب طبعات لها منك تطبع  
أطيف بها فى العين والنفس مثلما  
تعبد مشبوب العبادة مولع

نَموتَ يَتِيماً واحْتسبتَ مرارتي  
وأنشأتني بالحزن والدار بلقع  
وحين أتيج الحظ في ظل نعمة  
عليها شبابي الطلق والعيش مموع  
تغيبت في درب الطويل ولوعتي  
على العمر لو اني لدريك أسرع  
يروح الاحبا والديار شريدة  
وتأتي رسالات لهم ثم ترجع  
وما منك سطر في كتاب أناله  
فأتلوه لهفاناً وهو يشتمع  
سأرمي وراء الأفق روعي لعلها  
تري روحك العليا ونحوك تنزع  
وان فانت الأحلام عيني فانما  
على خاطر السارى خيالك بسطع

وسافرت الى مهجري السحيق وفي الصدر زفرات وفي الحلق  
غصص. فاستقبلتني لدى وصولي هناك قصيدة من المحاسنى كانت  
سلواى فى حياة كنت أحسبها مؤذنة باسراق، فاذا الخطوب والهموم  
تستبد بى والمضايقة تتسلط على، فاغادر المهجر وبى من آلامه  
الحاطة على الصدر ما يورث أشد القنوط. وفى قصيدته الوداعية قال  
المحاسنى:

ياصديقى، يمضى الزمان سريعاً  
ويرينا من أمره تبديعاً  
غزلت حفظنا العيون ولكن  
طاف حزن فيهن فاض دموعاً  
وتلفتُ كى أراك فغال الطيف  
حتى أطال قلبى جزوعاً  
الى أن قال:

ياخيلى طول السنين، سلاماً  
بردى شيق اليك نبوعاً  
و «فلسطين» باسمك اهاجها  
الناس كليثٍ قد كان قبل وديعاً  
ولم أكد أبلغ الوطن من ديار الهجرة والغربة، حتى استقبلنى  
المحاسنى بقصيدة قال فيها:  
عاد الهزار الى مرابعه  
فقل السلام على سواجعه  
قد كنت شط النيل أنشده  
شعرى وأمرح فى مرابعه  
لى فى رى الأهرام فيض هوى  
قد راح يغربنى بنابعه

ليس السياسة فى مزاج ديمى  
لكنه أدب يرائعه  
سل جامعات الفكر عن خيرى  
والمجمعى بيوم سامعه  
وأنا الوثام وديع فى قلم  
ذوب البيان على ودائعه  
لما انتنى بجتاح غربته  
بسبيل عيشٍ فى شوافعه  
ناديته فأجاب عنا صدى  
محزونة يحنو بدامعه

ولم يكتب الحماسنى بهذا الشعور السخى يفيضه علىّ، بل حيانى  
بقصيدة أخرى قال فيها:

خليلى، لك القلب الذى أنت أهله  
ولو ساءت الدنيا تدر مناهله  
أفديك بالعين التى هى ناظرى  
وبالمال لو لانت لديك مبادلته  
ولكن نفساً بين جنبيك كالتى  
حوى «المتنبى» مثلها وغوائله  
الى أن قال:

ونصير يبلوى ولا بد من غدّ  
سيدركنا فيه من السعد عاجله

وديعٌ لأنت الطود ليس تناله

زعازع مهما اشتد في الريح شامله

ولم يلبث المحاسنى ان أردف هذه التحية بجديد من تحاياها، منتهزاً  
فرصة صدور كتابه «أساطير ملهمة»، جاء فيها:  
إليك «أساطيرى» وما العيش والورى

لعمرى إلا كالأساطير نجياها

فلا تختمل عبء الحياة حقيقة

لقد نلت منها ما يسىء ببلواها

وديع أيا زين العباقر كاتباً

لك الشهرة الكبرى تعيش بنجواها

مثلا لأخلاقٍ رومز مروءة وعفة

دنيا بعد عسرك يسراها

وفى كل هذا الشعر، رغب المحاسنى فى أن يشهد لآخيه شهادة  
إنصاف ليقول لمن تجنى: لقد جهلتم أمره وقدره، فدعوه لأهله  
وحقه...

وكتب لى غير مرة، والحياة تقذفنى من قمة الى حضيض،  
يعرض علىّ ما أشتهى من مقتنياته، ويقسم بأن روحه لروحى الفداء  
- وهو قسم أمين ليس فيه حنث - فكنت أجابوه بأننى لا أطمع الا  
فى اخوته الباقية ومودته الغالية.

وعندما صدر لي كتاب «قضايا الفكر في الادب المعاصر»<sup>(١)</sup> وقوبل في عقر داري بصمت وعقوق فلم يتناوله ناقد ولا غني به صحافي أو أديب وما تصدى له زميل من زملاء القلم، أو طالب من عدد طلابي القدامى، فاجأني المحاسني العظيم بكلمة قيمة كثرت حسادي وألقت الجاحدين أحجارا.

ولما درى أن رابطة الادب الحديث تختفي بكتاب لي «في الصحافة» جاء غير مدعو ولا مكلف، وارتجل بليغة من بليغات كلماته، فوضعني في منزله كالجاحظ، وغلا في إعلاء مكاني في نظر السامعين.

وعندما عمل الدكتور المحاسني ملحقاً ثقافياً لسورية في مصر، كان صديقي الامير مصطفى الشهابي سفيراً لسورية في القاهرة، وكان ترددي على هذين الصديقين الكبيرين متواترا وبغير مواعيد مضروبة. وأخون لقلبي شرفه إن أنا كتبت كلمة حتى سمعتها من الامير الشهابي مراراً في الدكتور زكي المحاسني. فقد حدثني عن أدبه وخلقه، وكفاءته ونشاطه، وسفارته الادبية والثقافية بأسخى عبارات الشناء. وقال إن علم المحاسني وفضله ينهيانني عن معاملته كمرؤوس، فهو زميلي وأخي ويمناى المعينة.

ولست بكاظم أيضاً ما سمعته من أستاذنا وصديقنا العقاد العظيم عندما أشرت عليه بأن يكتب كلمة نقد وتعريف عن كتاب «شعر

---

(١) مؤلف لوديع فلسطين صغير بحجمه، كبير بمحتواه فقد عالج فيه قضايا فكرية وادبية بدقة الاداء وحقيقة الواقع والبرهان.

الحرب فى أدب العرب» ولم يكن العقاد قد اطلع يومها على هذا الكتاب. فلما قرأه، كتب مكبرا جهد المحاسنى معلما منهاجه العلمى رافعا إياه الى مكانة لائقة بحقه وقدره، ولم يكتب بهذا، بل وجه الى شكرها فياضاً لأننى أيقظت غفلته فنبهته الى هذا الكتاب النفيس واثمت له متعة ولذاذة فكرية نعم بها فى أوقات طيبة».

لقد كان المحاسنى لى أخصاً صادق الوفاء مبذول الوداد عمرا أربى على ربع قرن. فلم أراه تغير لا بالمناصب التى تقلدها، ولا بالمراتب الجامعية التى أحرزها، ولا بعضويات مجامع الخلود التى دانت له - متأخرة مع الاسف الشديد - ولا بأستاذيته التى انعقد الاجماع على نسبتها إليه. فزكى المحاسنى الطالب، هو زكى المحاسنى المعلم، والمستشار والمدير، والدكتور، عضو المجمع، هو زكى المحاسنى الشاعر الكبير، هو صاحب المعدن الاصيل، والخلق النبيل.

وما كنت أنا إلا واحداً - مجرد واحد - من أجباء المحاسنى الذين صافاهم الاخاء، وبادلهم الوفاء، وأحاطهم بالعناية وطوق أعناقهم بالتكريم فى شعره ونثره وعواطف قلبه.

فيا أسرة المحاسنى المفجوعة فى عميدها الكبير، تقبلونى باكباً معكم، حزينا شديد الحسرة على من كان لى أصدق من أخ حميم وأقرب من شقيق لصديق.

ولكن حزنا على المحاسنى ينبغى أن لا ينصرف الى قنوط ونواح، بل الى تخليد لذكرى هذا الأديب الانسان العظيم الذى خلف من

الادب المخطوط أوفر مما خلفه المنشور. فالوفاء تمام الوفاء للمحاسنى هو أن تخرج للناس كتبه، فترى من خلال صفحاتها صورة هذا العربى الاصيل النبيل الذى أحب الضاد محبة عشق، وأغناها بشعره وملاحمه، ونقده ودرسه، وأشاد بنهضاتها ومآثرها وأعلامها وقضاياها، وكان دائما لسان صدق وحق، ولسان بيان وإحسان.

\*\*\*

## زكى المحاسنى نابغة من دمشق

للاستاذ وحيد الدين بهاء الدين  
أديب السيرة والنقد - العراق

حسب الادب السورى الحديث ان يغدو الدكتور زكى المحاسنى أحد رواده الناهضين فى جيلنا الحاضر القلق، انه ما انفك يواصل ترحاله فى كل مسار ومدار، ماكف عن ارتياد شتى الآفاق، واستشراف التيارات والاتجاهات تطلبها لابعادها واصدائها، التقاطاً لانوارها وخطوطها، وعيا لمفاهيمها ومضامينها وبحثا عن جمالاتها وخصائصها، تغريه بذلك كله نزعة مكينة تحتضن التالد والطارف، وروح مجنحة تؤثر التحليق والانطلاق وفكر مشبوب يستجلى الحياة ما فيها ومن فيها ويستقطب المجتمع ما له وما عليه.

من هنا ما فى اعتزاز الادب العربى بسورية برجل تجلت فيه سمات النبوغ، وذكاء القلب ونقاء المعدن كالمحاسنى من دلالة،

حيث أوسع له وأحله المحل الحرى به انسانا واستاذا، باحثا وشاعرا،  
مفكرا ومحققا.

كفاه انه من نوابغ دمشق، ومن بناء مجدها الادبى الاصيل على  
مدى طويل ناهز الاربعين سنة. ان التاريخ يعرف كيف ينصفه،  
وكيف يقدر الرسالة التى أداها وقد قاد قافلة الأدب الحديث رائدا  
طليعيها الى جانب عشرينه وزملائه يرتقى معهم سلم المجد، ويدعم  
النهضة الجديدة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن وأمانة الغاية.

ومن أجل هذا كله نفع المحاسنى الخزانة العربية بآثار بارزة هى  
ألوان من الثقافة المعاصرة فى مجالها وفحواها من فكر وشعر، من  
بحث ومقالة، من نقد وملحمة ومن خاطرة وسانحة.

المحاسنى فى انتاجه يتفجر عن طاقات ابداعية ضخمة، ترفدها  
الحياة بمآتيها ومعطياتها، ويخصبها التمرس وتجربة الذات ويطلقها  
الزمن عبر سيره ودورانه.

إنه يحاول مخلصا تصوير الماضى وإحيائه بتجسيد مضمونه  
الانسانى، ليصله بالحاضر المائج بالثورة الفكرية، بالتحول  
الاجتماعى، وبالتكالب المادى لبلوغ المطامح الجائلة فى اغوار  
الوجدان العربى، ايمانا منه بضرورة نفخ غبار التخلف عنها،  
واسقاط السلبيات ومعاينة التجدد والتطور، ثم إرهابا بأرضية ثابتة  
لغد أعم جودا وثراء وأعظم بهجة وجدوى، غد يحبو اليها بحكم  
ناموس الوجود. حتى انك لترى المحاسنى فى مؤلفاته مؤكدا من جهة

على اصالة العرب الحضارية ورفضهم التبعية والهزيمة الفكرية.. ومعبرا من جهة أخرى عن الشخصية الشرقية الاسلامية ذات المقومات الخاصة والمتميزة برصيدها الروحي والعقلي، وياثارا لهذا الرصيد.. لانه طالما رقد حضارة الغرب وتمازج معها قصد التأثير فيها والتأثر بها.

وأحسب المحاسنى على حق فى قوله: «واذا كان شعر الحرب فى الادب العربى هو اقوى ما نظم الشعراء على ترادف الاحقاب فذلك لانه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها. انه وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها وأنشيد بطولتها».

يتعمد المحاسنى هذا كله لاستغلاله كأداة دفع يحض بها قومه تبصرة لهم وتذكرة بأن لا مندوحة عن السير فى هذا الدرب الطويل الشاق.. لتجديد الثقة بأنفسهم وتوطيدها على توالى الأيام، ولاعتماد العلم والعمل أساسا فى التنظيم والابداع ولالتماس بواعث المجارة للامم الباغلة السمو الحضارى، وذلك حفاظا على كنوزهم وذخائرهم وتحقيقاً لما يخالجهم من الطموحات والامنيات.. وهى مقياس التشرف والاطلال. معنى هذا ان المحاسنى ديدنه، أولا وآخرا، وحدة الهدف بعد وحدة الفكر، فقد قال: ان فكرة «الادب للادب» لاتدخل فى اعمالى الادبية، وان عديد الكتب التى الفتها حتى الآن لا يقوم الا على التربية الاخلاقية وبناء الجيل العربى بالمثل العليا».

مجال القول فى المحاسنى موسوعيا مثقفا.. يعانى تجربة الفن الشعرى، ويخوض مهامة الابحاث الجادة ويزاول مختلف ضروب

التفكير والتعبير.. ذو سعة، يقتضى منى ومن غيرى تفرغا وانكبابا لا أملك من اسبابهما ما يعيننى على ذلك، اذ تتعذر على الاحاطة الكاملة بأعمال المحاسنى الادبية، واشباعها دراسة وتحليلا، خشية ان يفقد النهج العلمى، الذى لا أحميد عنه، عناصره، اضافة الى كونها مجانفة لمهمة التركيز التى اتوخاها فى كتاباتى.

على ان هذا لا يحول دون الزعم بأننى أوليت الجانب الملفت للانتباه فى اعمال المحاسنى الاهتمام الخاص الحقيق به.

فالتركيب الفنى لشخصية المحاسنى الادبية يمكن ان يتحدد فى ثلاث نقاط، تلك هى رسائله الجامعية، ودراساته الادبية وموهبته الشخصية فى الشعر واعداده للملحمة العربية.

ومن الفضائل العلمية التى يتحلى بها المحاسنى فى رسائله الجامعية الزامه نفسه بقواعد صارمة من المنهجية فى التأليف، والتجرد فى البحث، والامانة فى القصد والاشارة الى المصادر.

على ان اعتماده الاسلوب الموضوعى، وركوبه المركب العشن فى رسائله، وان كان عملا صعبا يتطلب المثابرة والجلد، فانه لا يتهاون فيه، ولا يتعاجز عنه ولا يستهين به. قال فيه «شاعر الاهرام» محمد عبد الغنى حسن: «... وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يتسر الأحكام، أو يتابع فى الآراء من غير تحقيق، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويزن ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

ومن خلال رسائله هذه، ذات الطابع الاكاديمى البحت، يتجلى لنا مذهبه كباحث علمى ومحقق اصيل، ويتضح حياده الفكرى فى معرض الآراء والاحكام المتعددة، المضطربة، كذلك تبرز قدرته الفنية فى التمهيد والتنسيق والاستقصاء.

فانما هو يغربل الحقائق التى يلتقطها، ويحلل الوقائع التى يتلمس خطوطها بأمانة وثقة ثم يربط المقدمات بالنتائج بخيط دقيق يكاد لا يستبين، مؤلفاً ما بين اطراف المادة المبعثرة ومتدرجاً من التفصيل الى التركيز.. ومن التركيب الى التحليل.

ولئن كان من المسلمات ان عبد الوهاب عزام علامة جليل فى نهضتنا الفكرية الحديثة، وهب حياته للبحث عن العلم فى أنصح مظاهره وانبل غاياته وقصد الاصاله والامانة فى ما ألف وانتج، فاننا ندرك فى الحال الى أى مدى تتبع خطاه تلميذه المحاسنى على البعد والقرب، مقتفياً أثره، مغترفاً من ينبوعه ثم معترفاً بفضله. وأليس هو القائل: «وتبعنا عزاماً رائد الادب والبيان» فى مقالاته التى كان ينشرها فى «الرسالة» و«الثقافة» كل اسبوع وكأنه، على البعد، من اساتذتى الذين علمونى فى دمشق وكان لهم فضل التوجيه فى حياتى الادبية؟ ثم أليس هو القائل أيضاً: «وحين التقيت بالدكتور عزام كنت كحافر الارض زمننا حتى بلغ الى مواقع الكنز فيها»؟

ومن هنا جاءت رسالته «شعر الحرب فى ادب العرب» - وقد نال بها درجة الدكتوراه - منظوية على عناصر الريادة والاصالة والجدة، لان المحدثين لم يظرفوا هذا الموضوع - على حد قوله - من

قبل. وفي المقدمة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام لهذه الاطروحة وقال: «وقد عكف فيها - أى المحاسنى - عكوف الباحث المخلص المثبت، الذى لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن الى الدعة ولا ينوء به النصب والدأب».

اما المحاسنى نفسه فيقول: «وقد اتخذت لبحثنى النهج العلمى فى التبويب والتفصيل والترقيم، معتمدا على التحليل والتمحيص حيناً وعلى المقارنة والنقد حيناً آخر.. لاستكشاف الظواهر الادبية الحماسية وربطها - اذا دعا الامر - بأسباب السياسة والتاريخ».

والمحاسنى مجدد على مستوى الادب الصحيح.

ان فى قيامه بدراسة بعض الشخصيات الشهيرة فى تاريخ الادب، كأبى العلاء المعرى وأبى الطيب المتنبى وأبى نواس من القدامى، وكأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وابراهيم طوقان ومن اليهم من المحدثين، معنى من معانى الوفاء الانسانى.. ودلالة من دلالات تخليد الثقافة العربية فى آفاقها واعماقها، فى عظمتها ومثاليتها، لا لشيء إلا لأن هاتيك الشخصيات افنت ذواتها وجندت قواها العقلية والشعورية من اجل تعميق القيم الحياتية والمبادئ الاجتماعية والحضارية التى آمنت بها الذات العربية واستمدت منها روح يقظتها ومفتاح شخصيتها ومهماز بقائها على العصور والاجيال، كذلك سخرت امكاناتها وملكانتها فى سبيل تطوير الاساليب الادبية والمقاييس الفنية لتعمل تأثيراً وتوغلاً فى مجرى الازهان ومسارب الاحاسيس..

ولتبقى قاعدة عريضة يلتقى على صعيدها القديم والجديد، الماضي والحاضر.

وكيف لا يعير المحاسنى الشاعر اهمية لشاعر كالمثنبى وهو، كما يقال، ابو المعانى، وهو ايضاً أعظم شاعر فى سمو الفكر وقوة الشعور، انجبتة الامة العربية مفردا فى جميع عصورها الادبية المتطاوله؟

دع كل صوت غير صوتى فانى

أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

وأما أبو العلاء، الذى تناوله المحاسنى فى أطروحته التى نال بها درجة الماجستير، فحسبه انه الرائد الذى أدخل الفلسفة فى الشعر العربى باقرار من تاريخ الادب، والذى نقد المجتمع فى أفكاره واشعاره ذلك النقد الرائع العميق. اجهاضاً لثرهاته وسقطاته، وايجادا لمناخ الحق والعدل فيه ثم نهوضاً بأفواده المنتمين الى الجماعة الانسانية. لذا يقول المحاسنى: كذلك أجيبب أبا العلاء على ريق الشباب، فأخذت بكتبه مدارس وممارسة. وخطوت الشباب، فاذا أنا بضيف النبل أكتب عن شاعرى. ولكن سبقنى الكتاب، على كثرتهم، فى التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده أو لسوانح تسنح لهم فى أدب هذا العبقرى الشامى الذى خلد على الزمان فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع، وهل أبو العلاء الا ناقد المجتمع فى كل شعره وعميم نثره؟.

ثم من الذى يتجاهل أبا نواس، داعية الثورة على الاطلال الدارسة وداعية الحياة فى تطلعاتها، فيه يقول المحاسنى: «لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعمالى الادبية منذ ثلاثين عاماً، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة جامعية ومنهجية لشعر ابى نواس وأدبه؟» .

والمحاسنى، كأديب ملتزم داخلياً، متصف بدقة الحس ويقظة الوجدان، لا بد، أن يتجاوب مع الاحوال التى تحيط بشخصه، ومجتمعه وأمته، وان يتأثر بمن يشاطره مشاعر الوفاء والاخاء ويساقيه كؤوس العلم والمعرفة.

ومن هنا كان كتابه «طوقان: شاعر فلسطين» وليد تفاعله مع الأحداث المفجعة التى رافقت قضية العرب الاولى. فقد قال: «وإذا كان شعر طوقان قد ارتبط بقضية بلاده قبل النكبة وبعدها.. وعبر فيه عما لابسها قبل احتدامها فقد رأيتُه جديراً بالدراسة والتمحيص» .

بينما كتاباه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» هما عصارة زمالة فكرية.. وتلمذة، أو صداقة روحية استغرقتنا شطرا من عمره واستوعبتا، بالنسبة اليه، وجوده الذاتى والفكرى. وقد صور هاتين الشخصيتين، الرائدتين بلمساتهما، تصويراً واقعياً.. وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تعبيراً أميناً. مثلاً يقول عن أحمد أمين: «.. أما أحمد أمين فقد رأيت صورته فى كتابه «حياتى» كما رأيتُه فى العيان والممارسة، ولم أجد الشخص الذى فى الوجود مخالفاً للشخص

الذى صور نفسه على الورق.. بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عن التبعج والغرور» .

دراسات المحاسنى للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية البحتة والطريقة التحليلية المعاصرة. فاذا كان كتاباه «المتنبى» و «طوقان: شاعر فلسطين» يخضعان لأسس الطريقة الكلاسيكية فان كتابيه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» يختلفان عنهما من حيث التعليل والتفصيل، والاستقراء والاستنتاج، ثم يحويان شيئا غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق. ولعل لعلاقة المحاسنى الوطيدة بالرجلين دخلا كبيرا فى ذلك كله. لننظر ما يقول المحاسنى بهذا الصدد: «.. وهكذا كنت أقرأ «أحمد أمين».. فأتخيله فى شكله وسمته.. وأستخرج صورا حية من عاداته وصفاته من طول التنقيب فى كتبه ومقالاته قبل أن أعرفه من قريب.. وتجمعنى اليه مودة فكرية وتبعات حكومية» .

أما كتاباه الآخران «أبو نواس» و «أبو العلاء ناقد المجتمع» فتمثل فيهما الطريقة المعاصرة بالرغم من كون الاول صادرا قبيل الاربعينات وبعدها، الا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة فى البحث والمقارنة والدراسة.. لقد اصاب الدكتور فوزى عطوى كبد الحقيقة حين عرّج على المحاسنى فى كتابه «أبو نواس» بقوله: «.. وقد انعكس فى الكتاب أثر الثقافة العالية التى يتمتع بها الدكتور زكى المحاسنى، وذلك من خلال الدراسات المقارنة التى أجراها ولو بصورة عاجلة» .

وللمباحث الفكرية قدر كاف في آثار المحاسنى، استهل بها اهتماماته الادبية الاولى معالجاً اياها بحصافة العالم.. وحساسية الاديب وذوق الفنان، تحديداً لملامح الادب المعاصر وتطوراته واصدائه.. وتسمية لقادته من شعراء وادباء ممن شيّدوا صرحه الشامخ، القائم أبدي الدهر.

ففى كتاب «نظرات فى أدبنا المعاصر» يرصد المحاسنى نهضة الادب الحديث فى ما واكبها، وما اشتجر حولها وما تجدد فيها، من خلال الظروف الموضوعية للاقطار العربية التى بلورت هذا الادب واكسبته مقوماته الخاصة.. واسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الادب على التفاعل مع الاحداث.. واستيعاب قضايا الانسان العربى فى جميع البلدان والاعراب عنها بطلاقة واخلاص.

على ان الشئ الحرى بالانتباه هو ان المحاسنى، وان كان مؤمناً فى قرارة نفسه بالادب العربى بسبب خصائصه الذاتية والانسانية، فانه يرى أن هذا الادب غير جدير بالارتقاء الى المستوى العالمى.. أو الى درجة القياس به.. لافتقاره الى مياسم العالمية فى الاصاله والعمق والجدة والتأثير. انه ليقول: «ان الحقيقة، التى هى بغية كل باحث، تقول: «ليس ما لدينا من آثار ادبائنا، شيوخنا ومحدثين، الا القليل الضئيل مما نستطيع ان نقدمه الى جنب الادب العالمى».

ولكن هذا ليس بمانعه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمى،

ولكن اين هو الآن؟ بل اين نحن منه... ولم لم نصله بالحاضر  
الراهن؟ لقد تخلفنا وتخاذلنا، وغيرنا ما بأنفسنا، مستمرئين نشوة  
الخمول والخدر، حتى غدونا حيث نحن اليوم.

«لقد كان لنا ادب عالمى فى العصر العباسى والاندلسى، وكان  
لدينا أفاذ فيه عالميون. وحين نذكر الجاحظ، وأبا الطيب المتنبي وأبا  
العلاء المعرى نعتز بهم فى كل عصر».

ومع هذا كله فالمحاسنى لا يكفر بالضمير العربى ولا يفقد امله،  
معتقدا أما بالامكان اللحاق بالركب العالمى فى ميدان الادب والفكر  
اذا عرفنا كيف نفتحم آفاق هذا الميدان، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع  
العصر وتحولاته، والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته، ثم اذا عرفنا  
كيف نصور تجاربنا وما تعانیه نفوسنا. وعبرنا عن أصالتنا الانسانية  
وترائنا الحضارى وبالارتفاع الى ذروة الفن الحقيقى والفكر الواقعى  
ليتميز أدبنا العربى المعاصر بالعالمية فى المعنى والمبنى.

والمحاسنى المؤمن، يصوغ الحياة الأدبية بكل مناحيها وأهوائها  
على اساس من الدين.. متمثل فى «القران الكريم» و «الحديث». .  
إنه يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الاسلامية التى أخرجت البشرية  
التائهة من ظلام الجهالة الى نور الهدى والرشاد.

إذ يرى أن الادب لايمكن أن يزدهر الا فى ظلال الدين،  
فيقول: «لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل  
الخطاب إلا فى حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى فى حياة  
الشعر والفن ترائيل العبارة فى طقوس الدين».

صحيح ذلك.. ما دام الأدب هو النتيجة الطبيعية لدراسة الدين.. وكشف خصائصه وحقايقه بعد النفوذ الى أغواره وجذوره وترك ما لا صلة له به. يتجلى ذلك كله فى كتاب المحاسنى «الادب الدينى»، الذى ينتظم دراسات أدبية فى منتهى الروعة والتوافق الفكرى.. لا لشيء إلا لانه اعتمد «القران الكريم» و «الحديث» - كما نوهت - أساساً فى طريقة تناوله الموضوعات الكونية والوجودية، والقضايا الفردية والبشرية فى الجاهلية والحياة المعاصرة، علاوة على المناهبة الأخلاقية والأدبية فى ضوء التطورات الحديثة.. وعلاوة على قصص بعض الشخصيات الاسلامية التى غيرت وجه التاريخ وأرهصت، فى ظهورها، مفاهيم لم يكن للمجتمع العربى قبل بها. ومن مطاوى هذا الكتاب: «التجسيم النفسى فى القرآن الكريم»، «الوجودية المذهبية فى القلق»، «من آثار القرآن فى الآداب العالمية»، «شعر الجهاد فى ادب الاسلام»، «الفلسفة الاسلامية عند ابن تيمية»، «الرسول يصنع وحدة العروبة». وفى هذا الفصل الاخير يقول: «... ولا شئ يؤلف بين القلوب كالسلاح بين المجاهدين، فان اجناد الرسول وقواده كانوا كتلة واحدة كأنهم البنيان المرصوص، فخرجت هذه القبائل من معركة بدر تجرر اذيال النصر وتخفق فوق رؤوسها رايات العزة بظفر الرسول وصحبه. وقد تركت هذه المعركة فى ادب العرب القديم شعرا كثيرا قيل فى الفخر والثناء.. مازال الى اليوم يهيج كامن العظمة فى العروبة على الزمان».

وفى نهاية المطاف ينبغى ان نقف على ما هو واقع.. نشدانا للحقيقة العلمية التى عمل المحاسنى من أجلها ولأجلها.

إن المحاسنى، وإن تمسك بنظرية «تين» فى البحث والنقد، وهى التى تعنى بدراسة بيئة الكاتب أو الشاعر وظروفه الموضوعية.. وتحليل العوامل المؤثرة فى تكوينه وثقافته، فانه كمجدد، يؤمن بمبدأ التطور والانفتاح على العالم، لا يفلق أبواب المباحث العلمية التى يعالجها.. بل يفتحها على مصاريعها ليجلوها من يشاء من بعده وبما يشاء. ومن طبيعة الاشياء أن يظل باب العلم مفتوحا، هذا هو الصحيح.

على أن أسلوب المحاسنى تكتنفه بوجه عام، استطرادات، ولعله بهذه الظاهرة التى شملت حتى رسائله الخاصة متأثر بالجاحظ، الرائد الذى اختص بهذه الخصيصة الفنية الفريدة. ثم هو - أعنى المحاسنى -، فى طريقة معالجته الموضوعات يستعير من القديم ثوبه ومن الحديث روحه، عملا بقاعدة الجمع بين الاول لأصالته وفخامته وبين الثانى لطرافته وجدته.

وسبب من سعة ثقافة المحاسنى.. وتنوع روافدها العربية والغربية.. يتولى مهمة الموازنة ما بين الكتاب والشعراء فى الشرق والغرب ممن رافقهم فى رحلة الفكر، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الأدبية المعينة، مع ما فى الامر من تعزيز لآرائه وافكاره، وافصاح عن غزارة علمه وتناهى افقه، كما فعل حين وازن ما بين مالتوس وابى العلاء المعرى (١)، وما بين رامبو وأبى نواس (٢) .. وما بين فيكتور هييجو واحمد شوقى (٣) الخ...

(١) انظر «ابو العلاء ناقد المجتمع». (٢) انظر «النواسى شاعر من عبقر».

(٣) انظر «نظرات فى ادبنا المعاصر».

هذا والبعد الذاتى يترامى أمامنا واضحا كلما توغلنا فى دراسات المحاسنى حيث يدخل طرفاً فى الموضوع، فيبدأ بالتحدث عن ذاته فى مساق الكلام، حديثا تقائيا مستطابا، محاولا ان يربط، بينه وبين أسباب الموضوع الذى يتناوله بعامل فنى.

تفسيرى لهذا كله هو أن المحاسنى يندمج بما يعالج اندماج المستغرق.. ليضفى فى ذلك بعداً ذاتيا. والاديب الصادق يعبر، عبر سطره ومؤلفاته، عن تجاربه ومعاناته بعفوية لحمتها الاصاله.. وسداها الاخلاص. واما شعره فان ديوانه الذى سينشر قريبا هو الذى سيتحدث عنه ويدل على فيض قريحته وقيمة محتواه.

\*\*\*

## المحاسنى الشاعر

### فى نظر.... معاصريه

بقلم الأديب الاستاذ:

حسان الكاتب

ثمة مشاعر قوية تربط الأديب بإخوانه.. ولا عجب فهو ابن البيئة التى يعيش فيها أقرانه وإخوانه.. ممن درجوا فى نفس الجو.. الذى مر، أو يمر.. فهى معاناة كاملة تعين الأديب الذى يحمل رسالة الأدب.. لقد توطدت صلتى بالأديب الشاعر الراحل الدكتور زكى المحاسنى من خلال رسالته التى وجهها لى على أثر اهدائه (الموسوعة الموجزة) والتى نفحتنى قوة وعزما وتصميما... حيث قال فيها: «لطالما أتوق الى ظهور معلمة بين المواطنين بسورية من صنع علمائهم وأدبائهم وحماة اللغة العربية، حتى طلعت علينا (الموسوعة الموجزة) التى انشأها فكرك وعلمك ووعيك وغيرتك على الثقافة العربية المثلى».

والمعلمة هى الام الكبرى التى تضم كل هؤلاء الانجال، كنت

وأنا مدير للموسوعة العربية في وزارة الثقافة بدمشق، أعلل النفس بأن موسوعتنا ستظهر عما قريب ولز في عهد غير عهدي...

فالى الامام يا عزيزى ويا صديقى القديم فى عملك الحميد. ولكم أطرب حين تعاودنى الذكرى فأرى تلاميذى اصبحوا اساتذة مثلى.. وكان تاريخ هذه الرسالة ١٩٧٢/١/٣. وكنت قبل ذلك معجبا بالمحاسنى الشاعر والاديب من خلال مؤلفاته وأشعاره التى كان ينشرها فى المجلات وخاصة فى مجلة الاديب.

لقد كنت أحس وألمس خلال مراسلاته النثرية والشعرية لباقة وذوقا ودمائة اخلاق ومجبة لاخوانه الادباء.

وكان المحاسنى يدع فى النشر والشعر وفى الدراسات الادبية فكانت قصائده التى ظهرت بين حين وآخر... تتميز بالطابع الوصفى والوجدانى وفى جزالة عرف بها.

وكان له باع فى الملحمة ورأى خاص بها فهو يقول: «عندى أن كل شعر طال أو قصر، وقد وصفت فيه المعارك، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلاذ أو الجهاد، هو من شعر الملاحم».. كما قال أيضا: «انى أعد الشعر الجاهلى الذى قاله اصحابه فى أيام العرب «ملحمة كبرى» ولكنها مقطعة الاوصال وقد اشترك فى وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء، وكفى بحرب «داحس والغبراء» أن تكون ملحمة كبرى اذا دامت اربعين عاما بين عبس وذبيان».

وضرب المحاسنى مثلاً من الشعر الاندلسى حين قال: «لقد حاول  
الاندلسيون صنع الملحمة على طريقة الشاعر هوميروس صاحب  
الايلاذة فكانت تجاربهم هذه الاولى فى شعر الملحمة تحتوى تاريخ  
العرب فى الاندلس وحوادث ملوكهم وتنازعهم مع الاسبان، وقد  
سجلوا فيها فتوحهم البلدان الاسبانية، والغريب أن بعض هذه  
القصائد المطولة كان يبدأ بالكلام على خلق العالم. ثم يتدرج فى  
الخليقة حتى يصل الى العصر الاندلسى الذى فيه الملك المبجل، اذ  
تنتهى القصيدة الى عصر الشاعر الذى نظمها، ولم يسمها أحد  
منهم ملحمة» وانما كانت عندهم أراجيز مطولة، بذلك ركبوا  
الارجوزة فخلصتهم من القصيدة ذات الراوى الواحد، اذ كانت  
اراجيزهم الملحمية كل بيت بقافية تخالف الثانية.. ولقد كان  
المحاسنى الشاعر يتمتع بصفات الباحث المدقق.. وفى ذلك قال  
الدكتور عبد الوهاب عزام فى تقديمه لرسالته «شعر الحرب»: «وقد  
عكف فيها عكوف الباحث المخلص المثبت، الذى لا يقنع بما دون  
الغاية، ولا يسكن الى الدعة، ولا ينوء به النصب والدأب».

ويشير الاستاذ محمد عبد الغنى حسن الى هذه النزعة بقوله:  
«وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف،  
يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يبتسر  
الاحكام، أو يتابع فى الآراء على غير تحقيق، ولكنه يقرأ، ويحقق  
ويوازن، ويزن، ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

وظل الادب وكتابة المقال ونظم الشعر وتأليف الكتب ومتابعة الحركات الفكرية شغله الشاغل .

كان النبوغ متأصلا في نفس ادينا اذ يقول في ذلك الاستاذ حسنى كنعان «عرفت هذا النيزك الادبي اللامع طالبا بمدرسة تطبيقات عنبر وتجهيزه - منذ أوائل عام ١٩٢١ وكان في المدرستين من أوفى وأنبل الطلاب، صان لسانه عن الاذى ولم ييسط لهم يدا بسوء ولذا أحده أصدقاؤه واساتذته، وكنت أسمع منه دائما جملة يرددها «سأنبغ ذات يوم» ساق هذه الكلمة على لسانه ثقته بنفسه ورجاؤه بمستقبله، وكان أصدقاؤه الخالص واساتذته كالشيخ محمد الداوودي والأستاذ سليم الجندى والشيخ عبد القادر المبارك يسدون خطاه، وينيرون له سبيل الوصول الى غايته السامقة، فولدت هذه الحوافز بنفسه الهمة والنشاط، ولذا كان دؤوبا على المطالعة والكتابة شعرا ونثرا.. وفي جولة تفتيشية اجراها وزير المعارف يومئذ العلامة محمد كرد على، على المدارس فى أيامه قدم له الاستاذ سليم الجندى طرائف من عمل طلاب البكالوريا المجددين فرأى فيها ما أدهشه، وتوسم خيرا بهذه البراعم المتفتحة وتلمس آثار النبوغ فأزمع على اقامة حفلة لهم بالجمع وقتئذ تقديرا وتكريما، منهم فقيدنا الدكتور زكى المحاسنى والفقيد الاستاذ الشاعر أنور العطار والدكتور جميل سلطان والاستاذ عبد الكريم الكرمى الملقب (بأبى سلمى) وقد هيا العلامة محمد كرد على الحفلة ودعا لها نخبة من أعيان دمشق وادبائها، ثم جمعهم وقدمهم الى الجمهور واحدا إثر الآخر،

وذكر كلمة موجزة عن مآثر كل منهم وتاريخ أسرهم، وطلب من كل منهم نموذجاً صغيراً عن شعره فكان لهذه اللفتة الكريمة النشاط والتشجيع والمثابرة على العمل. ولقد حدثنا الاستاذ سامي الكيال عن بدايات الدكتور المحاسني فقال: «وقد عرفته منذ اصداري مجلة «الحديث» عام ١٩٢٧.. فما هي الا سنوات حتى أخذ يوافيها بشعره ومقالاته، واذا هو صورة حية من الاديب النابغ الذي جعل «الادب» اجمل هواياته بل جعله شغله الشاغل، فلا تمر دقيقة من وقته دون الافادة من كتب الادب ومما يكتبه اعلام الفكر، يتابع الحركة الادبية المتطورة باهتمام وقد عاش زهرة شبابه ومطلع كهولته يدرس ويدرس وما يزال يدرس ويؤلف، واصبحنا لا نفتح مجلة الا ونقرأ له مقالة أو قصيدة هما عصارة الفكر الحر والموهبة الاصيلية، وصورة مشرقة من نفسه المنطوية على صور شتى من حياتنا الفكرية يغرف منها ويرسلها نفحات عبقة..»

وقد أشار المحاسني الشاعر الى صورة من مراحل حياته الادبية التي مر بها هو وانداده في كتابه عن أحمد أمين فقال: «.. فكنا على الحدائث ومستهل الشباب نتصل بأدباء بلادنا وشعرائها الغابرين والمعاصرين، ثم نتلفت الى حركات التجديد والتطور التي كانت تتوالى على ضفاف النيل عنيفة صاخبة أو هادئة متزنة، وكان من دأب صحافتنا العربية السورية أن تنقل للقراء والشباب المثقف والمتعلم صور هذه الحركات وصدى ما تضمنت من أفكار وآراء. فكان اسم الدكتور طه الحسين يدوى في المسامع والمحافل لما أثارته بحوثه

الثورية فى الادب، وفى الحياة السياسية والقومية، ولم تمض الاعوام طويلا حتى طلع اسم أحمد أمين العالم العربى والاسلامى بجديد مرتقب فى دراسة الحياة العقلية خلال العصور الاولى، فشاقنى تتبى لهذين العلمين الخفاقين أن أقف على نتاج كل منهم، وأنا فى بلدى وجامعتى أندارس مع أترابى مقالات كانت تنشر لطفه حسين وأحمد أمين فنتبين فيها ملامح وشخصية كل منهما بمقدار ما أوتينا من وعى وثقافة.

انه يذكر هذه الفترة من أيام الحداثة والشباب وما تركته مصر وما تركه عمالقة أدبائها من أثر فى نفسه وفى نفس انداده.

ومن قصيدة للمحاسنى يرحمه الله فى مهرجان ابى تمام فى

دمشق:

لام الأحية عذال بما هاموا

فما شفاهم من التبريح تلوام

ضلوا السبيل الى وجد فنقصهم

وطرحتهم به شكوى وآلام

دع الهوى بغية الفانين انهم

راموا الجسوم فما عزوا ولا داموا

واطلبه فى الروح صفوا باقيا، فله

من العروبة عشاق وهيام

حب لعمرك ما هانت نوازعه

ولا رمته تباريح واوهام

وقال الشاعر فى قصيدة أخرى بعنوان «ديانا» :

سعدت لأنى جئت فى هذه الدنى

كأنى عرفت العمر من قبل أن أحيأ

ألم أك فى طى التراب غذاءه

فأصلى فى نسل تقادم فى الهلكى

سلكت سببلى فى الهواء مرققأ

وفى عاصف منه تعسف واستعلى

وفى الماء فى أوج الغيرم وربما

بمستنقع أوردت كددرته الحرى

فما انعكس الخيام فى برج خاطرى

يوسوس فى فكرى بحيرته النشوى

ولا كان لى عند المعرى وسيلة

لأبس فيها الزهد لبسته الكبرى

وفىما بلى يحدثنا الدكتور بديع حقى عن المربى الدكتور زكى

المحاسنى: «كنت قد استشرفت السادسة عشر من العمر، حين

عرفته، لأول مرة، معلما لى فى الصف الثامن من مكتب تجهيز

عنبر.

وامتدت نظرتى، شعاعا مستطلعا حزمة الأشعة المتشرفة الشاحصة

من عيون رفاقى فصافحت، لما دخل حجرة الدراسة قامته المشيقة،

المنتصبة وكان ربة، الى الطول ورأيت اليه يمضى فى حيوية الشباب

وعنفوانه، الى كرمى قابع خلف المنضدة.

وكنا وقوفا فأشار بيده اشارة تحملنا على الجلوس، وتبادلنا همسات مقتضبة يسيرة: «ان معلم اللغة العربية هذا، هو فيما يبدو: معلم رقيق الحاشية لطيف، بذلك تشي قسما وجهه الطيب السمع...».

وهنا يصف الدكتور صفاء خلوصى ادينا الراحل وهو فى حالة المرض فيقول: «ما أكثر رسائلك الى وأنت مريض، مع ذلك فما كنت تشتكى ولا تبعث بأنه ولا آهه، حتى خيل الى أن ما ينسب اليك من مرض وعكة عابرة بولغ فيها، الى أن جاءنى النعى».

وكان المحاسنى الذى فقدته دمشق والعالم العربى ينظم الشعر حتى الساعات الاخيرة من عمره ومن تتبع هذا الشعر وجدته متفاوت الالوان غزير الانتاج صادق الوجدان، ومن عجب أن هذا الشاعر الموهوب كان على انصرافه للشعر متعدد الجوانب فى أدبه منبسط الشهرة ذائع الصيت.

ولقد جاء نعى الفقيد الغالى فاجعة ألمت باخوانه الذين يجلونونه<sup>(١)</sup> ويكرمونه ويحبونه.. وهذه الايات للاستاذ رشاد على أديب فى رثائه.

قد يبعث الاسى والشجونا

حين يزجى الى النفوس المنونا

---

(١): لمعرفة تفاصيل ترجمة المحاسنى وتكليفه يرجى الرجوع الى مقالنا فى العدد الصادر فى مايو ١٩٧٢ بعنوان «الدكتور زكى المحاسنى فقيه الادب» فى مجلة الاديب.

سنة الله منذ خلق البرايا  
وديب الحياة فى العالمينا  
انها حكمة يحاربها النسا  
س ويخشون أمرها هائبينا  
ويعانون فى المصاب اكتسابا  
ويذوبون حرقة جازعينا  
لا مردّ لحكم ربي تعالى  
انه الله أعدل الحاكمينا  
فاذا شاء أن ينفذ أمرا  
وقضاء يقول كن فيكونا  
كل من فى السماء والارض من خل  
سق لابرام حكمه خاضعونا  
فليقل كل من يصاب برزء  
اننا فى بلائنا طائعونا  
حسبنا الله ربنا واليه  
كل حين وساعة راجعوننا  
اننا صابرون والله يجزى  
بثواب من فضله الصابرينا(١)

ولا بد لى أخيرا أن اتحدث عن الدكتور المحاسنى عن قرب فلقد  
زرته فى داره بدمشق قبل وفاته بشهرين وكنت أحببته من خلال  
(١): للحصول على الرثاء الكامل يرجى الرجوع الى العدد الصادر فى يوليو  
١٩٧٢ من مجلة الاديب.

دراساتى لادبه الغزير الجم فى الصحف والاذاعة والمؤلفات التى زادات على العشرين، فاستقبلنى استقبالا حافلا مع قرينته السيدة وداد سكاكينى الادبية المثالية الفاضلة، رغم أن ذلك اللقاء كان أول لقاء... وآخر لقاء أيضا.. ودامت زيارتى له أكثر من ساعة حدثنى فيها الكثير عن الادب.. وعن اخوانه فى الادب... وكان خلال حديثه مركز المعلومات دقيق العبارة عميق الفكرة حتى انه حدثنى عن عبد الحميد الكاتب كثيرا وكان خلال حديثه كأنه يقرأ من كتاب مفتوح امامه.. قوى النبرة.. فصيح العبارة والبيان.. وأذكر أنه قال لى «وما من ريب فى أن عبد الحميد أفضل كاتب ظهر فى العصر الاموى فقد كان بليغا وقد ضربت ببلاغته الامثال حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد.. الى أن قال: ويقول اليعقوبى أن عبد الحميد تخلف بمصر واستتر حتى دل عليه صالح بن على وزاد غيره انه لما اتهم اختبأ فى كنيسة فى بوسير من أرض مصر.. وقال آخرون أنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمر عليه - وكان صديقه - وفاجأهما الطالب وهما فى البيت، فقال الذين دخلوا أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما، أنا، خوفا على صاحبه وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا: ترفقوا بنا، فان لكل منا علامات، فوكلوا بعضكم وليمض البعض الآخر الى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذوا عبد الحميد».

وإذا أردت أن أقول كلمتى الاخيرة فى هذا المجال.. فلا بد أن

أقول كلمة الحق.. كما عرفت الدكتور زكى المحاسنى.. فهو أديب  
أصيل وباحث متعمق يدرس الموضوع من جميع جوانبه.. وشاعر  
مرهف الحس.. كبير القلب.. صافى النفس.. وبكلمة.. فالشاعر  
المحاسنى موسوعى الثقافة.. وقد كتب عنه الكثير.. وسيكتب عنه  
الكثير.. ولن يوفى حقه، ومتى ظهر ديوان المحاسنى مطبوعا سيعجب  
القراء لما أوتى هذا الشاعر المطبوع من فيض القريحة وانطلاق الشعور  
والخيال.

\*\*\*

## تعزية بالفقيد الصديق

للاستاذ المؤرخ صبرى أبو المجد

أديب الصحافة العربية - مصر

ليس أقسى على المرء من أن يتأخر فى القيام بواجب عزيز غال  
لكن العذر يكون مقبولاً، إذا كان التأخر عن القيام بهذا الأمر، عدم  
معرفة الظروف التى فاتنى فيها القيام بهذا الواجب، والقصة تتلخص  
فى أننى فوجئت من أيام، ومن أيام فقط بمعرفة نبأ وفاة الكاتب  
والشاعر العربى، الدكتور زكى المحاسنى، وقد كانت لى - على البعد -  
صلة وثيقة، كما كانت لى معه فى القاهرة وفى دمشق بعض  
اللقاءات الأدبية المشمرة وقد هزنى النبأ لأننى أحس فعلاً بفداحة  
الخطب فى أدينا وشاعرنا الكبير، هل من تعزية ولو جاءت متأخرة  
كثيراً الى أديتنا العربية السيدة وداد سكاكينى قرينة الراحل الكبير  
رفيقة جهاده والتى كان اقتران الدكتور زكى المحاسنى بها - كما  
أكد أكثر من مرة - وسيلة مشجعة ليمضى فى حياته الأدبية، وكان  
ما لهذه الكاتبة من المنزلة العزيزة فى الأدب العربى الحديث باعثاً

لاعتزازه بالحياة الفكرية والفنية وهل من عزاء لذكوان وذكاء وسمااء  
- أولاد زكى ووداد - فى فقد أبيهم الكبير، وهل من أمل تقدمه  
الى دور النشر فى الوطن العربى، لعلها تنشر وبسرعة ما تركه الفقيد  
الكبير من مخطوطات فى مقدمتها ديوان المحاسنى الذى كتب قبل  
وفاته قائلا: «أرجو أن أتفرغ لتنسيقه لعل الله يهيم لى من يطبعه».

يرحم الله الدكتور زكى المحاسنى فقد كان أديبا، وشاعرا،  
ومحققا، وكان خير من كتب معن شعر الحرب فى أدب العرب،  
وعن أبى العلاء ناقد المجتمع وعن المتنبى وإبراهيم طوقان وأحمد  
أمين وعزام.

\*\*\*

## شعر الحرب فى أدب العرب

### للدكتور زكى المحاسنى

علامة التأليف فى أدبنا القديم

والحديث الأديب الناقد

الدكتور شوفى ضيف - مصر

ما أعرف أدبا من الآداب تتسع جوانب الدرس فيه كما تتسع فى أدبنا العربى، وبعبارة أدق لا أعرف أدبا من الآداب يحتاج الى جهود العلماء والدارسين كما يحتاج الادب العربى، فان من يدرسون هذا الادب يعرفون اننا لم نفسر وجوه نشاطه ولا كشفنا عن جوانب حياته الا قليلا من ظواهر عامة ومن شعراء مشهورين.

ولعل مرجع ذلك طول تاريخ الادب العربى، فتاريخه بين الآداب المختلفة، يعتبر أطول تاريخ، وقد تقلبت عليه صروف وعصور وأقاليم لم تتح أيضاً لأدب آخر، اذ أمضى حتى الآن نحو خمسة عشر قرناً. وليست المسألة مسألة زمن، بل هى مسألة مكان ايضا، فقد اتسعت بأصحابه والناطقين به رقعة الارض، فاذا أهل افريقيا الشمالية وآسيا الغربية الا قليلا منهم يشاركون فى آثاره، وصنع نماذجه.

ومكتباتنا فى الشرق ومكتبات اوربا وامريكا فى الغرب تزخر  
بنصوص هذا الادب وكتبه ودواوينه وكثير من هذه الكتب  
والدواوين فى حاجة الى النشر، وكثير منها أيضا نشر، وما نشر وما لم  
ينشر فى حاجة الى الوصف.

ولكن كيف نصف؟ ان لك الخيرة فيما تريد من وصف، فاما  
ان تصف الادب العربى جملة، وتحاول ان تتحدث له مذاهب أو  
طبقات فنية يتقلب بينها، وأما أن تصفه مجزأ فى عصور واقليم  
خاصة.

ولك ما تريد حينئذ من درس الأدب العربى فى العصر الأموى او  
العصر العباسى أو عصر الايوبيين أو عصر المماليك، ولك ايضا ما  
تريد من درس هذا الأدب فى اقليم معين كمصر والشام والاندلس.  
أزمنة وأمكنة مختلفة، وكل زمان ومكان يوحى بموضوعات  
متعددة، بحيث اذا ذهبت تخصصى الموضوعات الصالحة للدرس فى  
الادب العربى تعذر عليك الحصر وتأبى عليك الاستقصاء.

وليس من ريب فى أن هذا يحدث طرافة فى أدبنا العربى، اذ تكثر  
فيه الموضوعات التى يمكن للباحثين من العلماء والدارسين أن  
يعرضوها على التمهيص والامتحان، وان يستخرجوا منها ما يريدون  
من حقائق تاريخية وفنية.

وان من واجبنا ان نرحب بكل جهد ممتاز يحاول به صاحبه ان  
يصور جانباً من جوانب هذا الادب، وخاصة اذا كان يعالج موضوعاً  
لم يعالجه احد من قبله، فانه حينئذ يكون خليقاً بالثناء والتقدير.

وهذا ما يجعلنا نستقبل كتاب «شعر الحرب في أدب العرب» للدكتور زكى المحاسنى بالاعجاب، فقد كتب فى هذا الموضوع كتاباً بديعاً فيه عناء كبير ورجوع الى ما طبع من كتب العرب والى ما لا يزال دفيناً فى دور الكتب.

وقد اختار الدكتور زكى لكتابه عصرين، هما العصر الاموى والعصر العباسى، وقدم لذلك بمدخل طويل عن ملاحم الامم القديمة، ثم استرسل فى كلامه عن الملحمة العربية، حتى اذا تم له ذلك بدأ الحديث عن العصر الاموى وهو يفصل ما يستطيع من تفصيل، ويتسع بجوانب البحث، ويمد اطنابه على كل ما فى العصر، من حروب حزبية داخلية وحروب اجنبية خارجية.

وفى كل مكان من أمكنة الحرب الداخلية والخارجية نجد الشعر يشفع بالتاريخ، كما نجد الطرافة فى العرض والعناية بالاسلوب، حتى ليتحول فى كثير من الجوانب الى بدع من الشعر، وكأن الكاتب يريد ان يصف الشعر بالشعر.

ويترك الدكتور زكى المحاسنى العصر الاموى الى العصر العباسى، فلا يكاد يبقى على شعر فى مكان من امكنة الحرب داخلية او خارجية، حتى يقف عنده مسجلاً له، وقد وصف ما كان من حرب بحرية، وجاء بطرائف من النصوص والحقائق التاريخية.

ويتسع الدكتور زكى فى البحث، فاذا بنا فى القرن الرابع نشاهد حروب سيف الدولة مع الروم، وقد بسط الحديث فى ذلك بسطاً شائقاً، وألم بجوانب هذه الحروب المأما دقيماً، وقد رجع يقرأ ما ترجمه شلمبرج و فاسيليف عن مؤرخى البيزنطيين مما يتصل بهذه

الحروب، وجاء هنا بتحقيقات رائعة. سواء فيما يتعلق بالحروب نفسها أو بالاماكن التى نشبت فيها واسماؤها الصحيحة وهو أثناء ذلك يقابل بين وثائق المؤرخين من البيزنطيين، ووثائق المؤرخين من العرب، عارضا نتائج بحثه على شعر المتنبى وابى فراس الحمدانى.

وانا لا ارتاب فى دقة ما كتبه عن المتنبى روعته، غير انى وقفت عند ما قاله عنه وعن سيف الدولة من ان كلا منهما وجد صاحبه لما امتاز به من بطولة وفروسية، فالفروسية والبطولة هى التى جمعت بينهما. ونحن لا ننكر ما اتصف به كل منهما فى هذا الجانب، الا اننا نرجع الصلة أيضا الى ما كان من تشيع سيف الدولة والمتنبى جميعا، فالتشيع هو الآخر ربط بينهما ولعله هو الذى جعل المتنبى يعجب - الى غير حد - بسيده.

وهذا التشيع نفسه هو الذى جعل المتنبى يتفوق فى شعر الحرب ووصف القتال ومعارك الابطال وما يسفح اثناء ذلك من دماء. وهو فى ذلك يعبر عن غريزة الدم المكبوتة فى نفوس الشيعة جميعاً منذ مقتل الحسين، ولعل هذه الغريزة نفسها هى التى جعلت سيف الدولة يفرق حياته فى الدماء مشغولا لا يقرع الحوافر عن المزاهر.

وهذا رأى بدا لى ان اعرضه على الدكتور زكى المحاسنى وهو لا يفيض من بحثه الطريف ولعله يطرفنا بابحاث أخرى فى المستقبل عن شعر الحرب فى الاندلس والمغرب، وكذلك فى الشام ومصر اثناء الحروب الصليبية فى الشرق وما كتب فيها من شعر، متناسين الحروب الصليبية فى الاندلس وما كتبه الشعراء فيها منذ عبد الرحمن الناصر.

وما أظننا نبعد اذا قلنا ان حياة العرب فى الاندلس كانت حياة  
حربية مستمرة، تقوم على الفروسية والبطولة، واننا لفى حاجة الى  
من يصور لنا هذه الصحف الدامية فى الاندلس العربية وما خطه  
ابطال العرب فى تلك الصحف من خطوط مشرقة.

وليس كل ما يعجبنا فى عمل الدكتور زكى بحثه ودرسه، بل  
نحن نعجب أيضا بكثرة مراجعه بين عربية وغربية. واعتماد الباحثين  
على المراجع جديد فى العربية، ولذلك كان هنالك من لا يعجبون  
بكثرة المراجع لأن ذوقهم لم يهذب تهذيبا علميا.

ونحن لا نعجب بالمراجع من حيث هى، ولكن لأنه يذكر فى  
هوامش الكتاب مراجع ثم يكتب ما تمثله من هذه المراجع، ولا  
يكتفى بذكرها فى آخر كتابه، ولا بأس فى هذا الصنيع. فالغرض  
الذى نريده قد تحقق عند الباحث وهو قراءة المراجع والاعتماد فى  
المسائل التاريخية على النصوص لا على الفروض والأوهام.

وقد ساق الدكتور زكى كل ما استطاعه من مصادر ورجع الى  
كل ما أمكنه من مخطوطات متأنيا متشدا. يجمع الشتات الى الشتات  
والألفاق الى الألفاق.

وانى اعترف بانه عانى كثيرا فى رسم هذه الصورة الحية الصادقة  
وتوسيعها بالألوان والظلال والأضواء. ونحن نرحب بهذا المجهود  
القيم ونثنى على ما فيه من بحث جديد فى دراسته المتقنة الممتعة.

\*\*\*